الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى
كلية الآداب واللـغات قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:.....

موضوع المذكرة

الشّعر الدّينيّ في الأندلس

"عبد الكريم القيسي أنموذجا"

مـذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبة:
- فضيلة بوقريو

إشراف الأستاذ:
راشد شقوفي

أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ: قندوز مختار ..... رئيســـا
الأستاذ: شقوفي راشد ..... مشرفا ومقررا
الأستاذ: سعيداني نور الدين .....عضــوا مناقشا

السنة الجامعية:
2018-2019م/ 1439-1440هـ

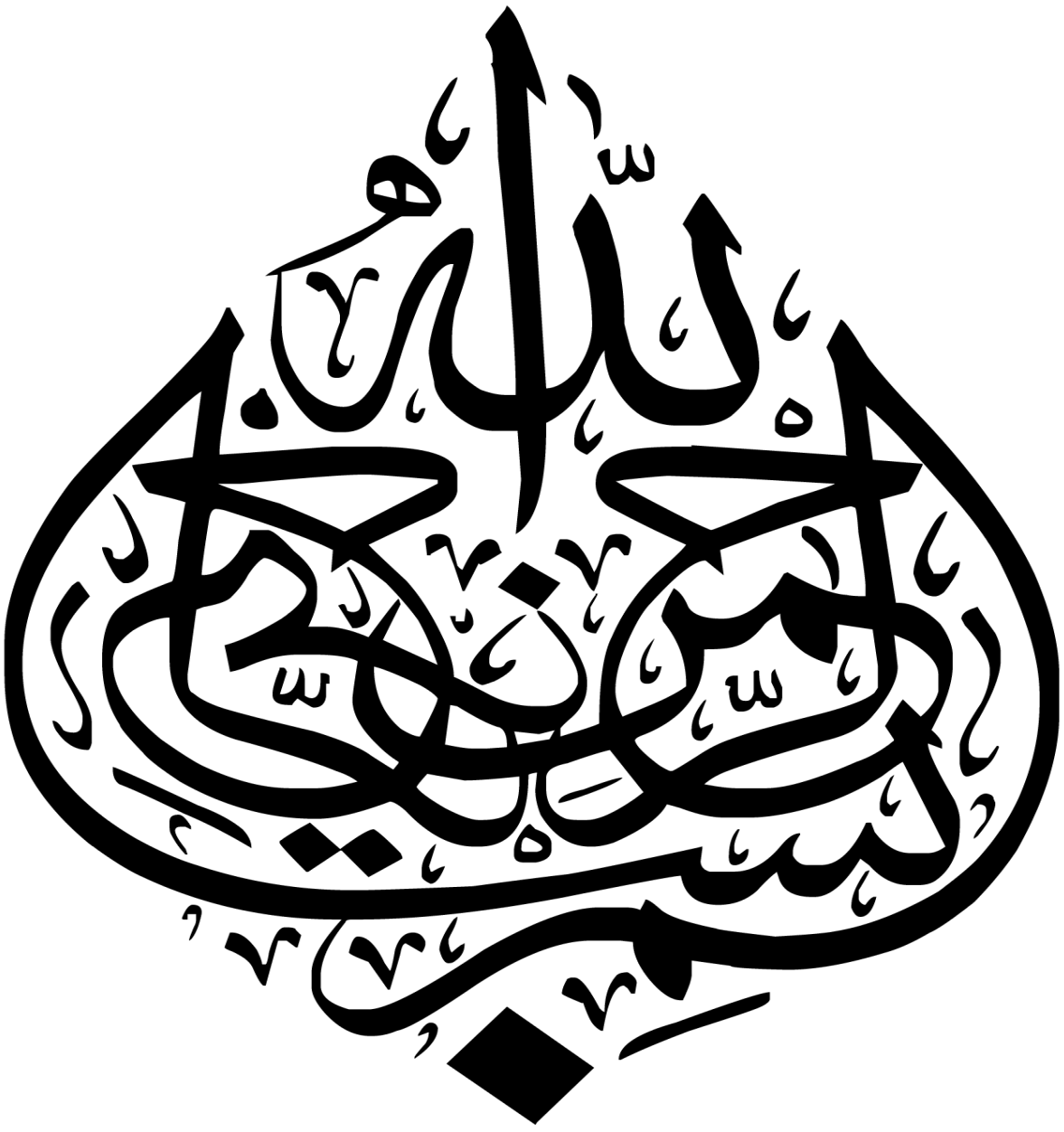

إهداء:

باسم الله الرحمان الرحيم

إلى أسرتي دوما

إلى أولائك الذين سلكوا دروب الضّاد في بحثهم

عن الذّات

عن المعنى

وعن الرّؤية المختلفة

إلى مدينة منحتني فرصة أخرى لأبقى على قيد

البهاء... جيجل

مقدمة

الحمد للّه وحده والصّلاة والسّلام على من لا نبيّ بعده، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه إلى يوم الدّين.

كان فتح الأندلس مشروعا حضاريّا اضطلع به الفاتحون لتعزيز التّواجُد الإسلاميّ في المنطقة، وقد احتضن الأندلسيّون الدّين الإسلاميّ مأخوذين بسماحة تعاليمه وسموّ مبادئه، الّتي ازدادوا تمسّكا بها زمن انحسار الدّولة ومِن ثمّ فقد ظهرت في عهد بني الأحمر نزعة دينيّة بسطت سلطانها على كلّ أشكال النّشاط الفكريّ والاجتماعيّ والأدبيّ بصورة خاصّة، باعتباره مرآة عكست عِنايتهم واحتفاءهم بهذا التّراث اللّغويّ، الّذي حفلت به دواوين الشّعراء أمثال: ابن خاتمة(770هـ)، ابن الخطيب (776هـ)، ابن جيّاب (749هـ)، عبد الكريم القيسي وابن زمرك(793هـ).

لذلك شرعت في إعداد هذه الدّراسة الّتي تحمل عنوان "الشّعر الدّينيّ في الأندلس، عبد الكريم القيسي أنموذجا" بهدف الوقوف على موقع شعر الزّهد والتّصوّف والمديح النّبويّ من الحركة الشّعريّة في العصر الغرناطي باعتبارها أجلّ الأغراض المطروقة. وقد انطلَقَت مع فكرة البحث مجموعة من الأسئلة أوجزها في هذه المقدّمة، في صيغة الاستفسار الآتي:

– ما هي العوامل الّتي أدّت إلى ظهور الشّعر الدّينيّ في مملكة غرناطة، وكيف تجلّى ذلك في شعر عبد الكريم القيسي؟

ومن أجل التّدرّج في الإجابة عن هذه الأسئلة، انتهجت خطّة توزّعت بين:

مدخل بعنوان: "البيئة السّياسيّة والثّقافيّة في عصر بني الأحمر"، استعرضت فيه وصف الحياة السّياسيّة والحركة العلميّة والأدبيّة في عصر بني الأحمر ،لاستخلاص إسهامات هذه الدّولة على الصّعيد الحضاريّ عموما والفكريّ والأدبيّ على وجه خاصّ.

الفصل الأوّل وسمتُه: "الشّعر الدّينيّ، بواعثه وتجلّياته في عهد بني الأحمر"؛ وجعلته مبحثين، تناولتُ في المبحث الأوّل النّزعة الدّينيّة الّتي سادت عصر بني الأحمر؛ أمّا المبحث الثّاني فقد خصّصته للحديث عن مضامين هذا اللّون الشّعريّ وأوجه التّداخُل بين أغراضه، فقدّمتُ عرضا نظريّا عن مفاهيم الزّهد والتّصوّف والمديح النّبويّ، مع نماذج من شعر المرحلة في هذه الأغراض.

الفصل الثّاني بعنوان: "الأثر الدّينيّ في شعر عبد الكريم القيسي، حيثُ اكتفيتُ بذكر نماذج من شعره ورَدَت في ديوانه الموسوم "ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسيّ"، مشيرة إلى ظهور بعض الملامح الدّينيّة في هذه النّماذج .

الخاتمة: أجملت فيها أهمّ النّتائج الّتي توصّلت إليها.

ولإضاءة درب البحث انفتحت أمامي مجموعة من المراجع ما بين قديم وحديث؛ فمن القديم: نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب ،لأحمد بن محمّد المقّري التّلمساني؛ وثلاثة عناوين قيّمة لابن الخطيب وهي: الإحاطة في أخبار غرناطة، نُفاضة الجراب، واللّمحة البدريّة.

ومن الحديث: كتاب القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجريّ(الظّواهر والقضايا والأبنية)، للدّكتور عبد الحميد عبد اللّه الهرامة؛ وكتاب الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ(موضوعاته وخصائصه) ،لقاسم الحسيني ؛وكتاب الأدب الأندلسيّ من الفتح حتّى سقوط غرناطة لمنجد مصطفى بهجت ؛وكتاب غرناطة في ظلّ بني الأحمر (دراسة حضاريّة) ليوسف شكري فرحات.

وقد لاحظتُ، وفي حُدود اطّلاعي المتواضع، خُلُوّ المكتبة الشّعريّة والأدبيّة من دراسات تتناول شعر عبد الكريم القيسي، باستثناء دراسة فريدة للدّكتور محمّد بن شريفة بعنوان: البسطي أخر شعراء الأندلس.

أمّا بالنّسبة لمنهج البحث، فقد وظّفتُ مناهج متعدّدة، وأهمّها المنهج الوصفيّ عند تناوُل مظاهر الشّعر الدّينيّ في ذلك العصر ؛ والمنهجين النّفسيّ والاجتماعيّ عند حديثي عن أهمّ دواعي ظهور هذا اللّون الشّعريّ وتحديد المؤثّرات البيئيّة وما تركته من أثر على شخصيّة الشّعراء وآثارهم الأدبيّة ؛واستعنتُ بالإجراء التّاريخيّ معتمدة على كتب التّراجم والكتب التّاريخيّة الّتي عنيت بدراسة عصر بني الأحمر.

بيد أنّ أمر البحث العلميّ ليس بهذه السّهولة واليُسر، فقد اعترضتني مجموعة من الصّعوبات أهمّها قلّة المادّة المتاحة عن أدب العصر الغرناطيّ، الّذي شهد انهيار الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس، بسبب ما أصاب هذا التّراث من عبث وإهمال. إلّا أنّي بذلتُ قُصارى جُهدي لأعطي هذا الموضوع حقّه وكلّ أملي أن يكون نافذة للبحث العلميّ في هذا المجال وفي هذا العصر الحرِج من تاريخ الفكر العربيّ والإسلاميّ الزّاخر، وقد حزّ في نفسي تعذُّرُ تناوُل الموشّح الدّينيّ السّمة البارزة لأهمّ مظاهر التّجديد في الشّعر المغاربي، وكذا الأشكال الفنّيّة للمديح النّبويّ من مسمّطات ومعشّرات وبديعيّات وغيرها، وذلك بسبب ضيق الوقت والتّقيُّد بما جاء في الدّيوان محلّ الدّراسة.

وفي الأخير أتوجّه بالشّكر لكلّ من آزرني ودعمني في هذا المشوار البحثيّ، وأخصّ بالشّكر موجّهي الأستاذ الفاضل "شقّوفي راشد" على ذلك المقدار من الكرم الخُلُقيّ والعطاء العلميّ و المنهجيّ، الّذي سدّ ما اعترى تكويني البيداغوجيّ من ثغرات ،كما أتوجّه بعظيم الشّكر والامتنان إلى الأستاذ "سعيداني نور الدّين" الّذي استأمنني على ديوان الشّاعر موضوع البحث وعلى دراسة قيّمة لشعره ولم يبخل عليّ بالتّوجيه والنّصح؛ والشّكر موصول للأستاذ "محمّد خيط" والأستاذ "مراد مزعاش" اللّذين أدركاني بمرجع مهمّ في أشدّ مراحل البحث حرجا والأستاذة "هاجيسي نهاد" الّتي مثّلت خير تمثيل مدينة جيجل في شموخها ورفعة أهلها وعطائهم الباذخ.

مدخل

إنّ الشّعر ظاهرة تعبيريّة أفرزتها معطيات سياسيّة واجتماعيّة، وجب الإحاطة بها للوقوف على أثرها وإسهاماتها في صياغة النّتاج الأدبي **الغرناطيّ**، الّذي حمل سمات بيئته بما شهدته من تحوّلات.

المناخ السياسيّ:

ترتبط مملكة غرناطة في تاريخ الأندلس باسم أسرة بني الأحمر أو بني نصر، نسبة إلى مؤسّس الدّولة "محمّد بن يوسف بن محمّد بن أحمد بن حسين بن نصر بن قيس الأنصاريّ (ت671هـ) ،الّذي ترفع المصادر التّاريخيّة نسبه إلى سيّد أنصار رسول اللّه- صلّى اللّه عليه وسلّم-"سعد بن عبادة بن الصّامت الخزرجيّ"[1]، أمّا تسميتهم ببني الأحمر فترجع إلى جدّهم عقيل بن نصر، الّذي لُقّب بالأحمر لشُقرة فيه وقد اتّخذ ملوك بني الأحمر من هذا اللّون شعارا لهم في لون أعلامهم وقصورهم وكذا في رسائلهم السّلطانيّة.

وقد ظهر ابن الأحمر في المشهد السّياسي مُزاحما محمّد بن يوسف بن هود الجذامي، الّذي خرج على الموحّدين واستولى على ما تبقّى من إرثهم الحضاريّ زمن ضعف الدّولة، فاستظهرا على بعضهما البعض بملوك النّصارى(فرديناند الثّالث ملك قشتالة)،ذلك الاستظهار الّذي قضى بالتّنازل عن كثير من القواعد والحصون الأندلسيّة.

وقد استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على غرناطة سنة 635 هـ، لتصبح بعد استيلاء النّصارى على سائر بلاد الأندلس آخر المعاقل، الّتي يأوي إليها المسلمون ،الّذين اقتطعت أراضيهم ،فاتّبع سياسة المهادنة مع خصومه السّياسيّين لمواجهة الفتن الدّاخليّة ،ولجأ إلى الاستنجاد بسلاطين المغرب(بني مرين) لصدّ الخطر الخارجيّ على ما كان يشوب هذه العلاقة من حذر، يقول ابن الخطيب: "فتظاهر لأوّل أمره بطاعة الملوك بالعُدوة وإفريقية يخطب لهم زمنا يسيرا، وتوصّل بسبب ذلك إلى إمداد منهم وإعانة"[2]

وبانتهاء فترة حكم خامس حكّامها الغنيّ باللّه، أخذت بوادر التّشتّت والتّمزّق تلوح في الأفق، بسبب احتدام الصّراع على الحكم بين أفراد أسرة بني نصر نفسها، في ظلّ نظام الحكم الوراثيّ، الّذي فرّق شمل المسلمين

[1] المقّري (أحمد بن محمّد):نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر- بيروت،1968،ج1 ص 344.

[2] ابن الخطيب(لسان الدّين):الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمّد عبد اللّه عنّان، مكتبة الخانجي-القاهرة ،ط2، 1973م، ص 52.

في وقت كانت فيه الممالك المسيحيّة تُوحّد جهودها(زواج فرديناند الخامس ملك أرغون بإيزابيل أخت هنري الرّابع ملك قشتالة) ،بغية تحقيق مراميها الّتي كانت تُذكيها أحقاد دينيّة ضربت جذورها في التّاريخ، فقد ظلّ الإسبان يهجسون باسترداد الأندلس لإعادتها إلى نصرانيّتها الأولى.

وفي سنة(896هـ-1490م) شُدِّد الحصار على غرناطة ،وسَلَّم أبو عبد اللّه -آخر ملوكها- مفاتيح الحمراء للعدوّ وهو يقول: "هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في إسبانيا، خذها فقد أصبح لك مُلكنا ومتاعنا، كما قضت مشيئة اللّه، فتقبّلْها بالرّأفة الّتي وَعدتَ بها، والّتي ننتظرها منك"[1] ثمّ غادَرها بعد يومين إلى منفاه باكيا، وأمّه عائشة تُوبّخ تخاذله قائلة: ابكِ كالنّساء مُلكا لم تحافظ عليه مثل الرّجال.

المناخ الاجتماعيّ والاقتصاديّ:

ضمّ المجتمع الغرناطيّ العديد من الطّبقات الاجتماعيّة، حيث ألّف التُّجّار مع كبار الملاّك طبقة أعيان المملكة، يُضاف إليهم كبار الموظّفين ورجال العلم والأدب، في مُقابل فئة الفلاّحين والحرفيّين والعمّال والأجراء والعاطلين عن العمل، والمعروف أنّ "نفقات الدّولة استهدفت قبل كلّ شيء خدمة الفئات النّافذة ،التي مالت إلى البذخ عن طريق القصور والرّياش ومجالس اللّهو والخمر، والموسيقى واقتناء الجواري والغلمان"[2] ،ممّا أوجد تفاوتا في المستوى المعيشيّ، لم تكن معه حالة أبناء العامّة مُرضية، كما " لم تصل إلى حدّ الزّراية"[3] ،حيث عرف المجتمع الغرناطيّ رخاء نسبيّا، نتيجة لما زخرت به المنطقة من ثروات وموارد طبيعيّة، أمدّت الصّناعة بأسباب الازدهار، "ففي العصر النّصريّ استُخرج الرّصاص من مناجم **برجه**، وتعدّدت مناجم الحديد في منطقتي **ألمريّة ووادي آش**"[4]،كما انتعشت الصّناعة الحريريّة "وشجّع الحكّام زراعة التّوت، وتربية دودة القزّ، ممّا جعل الحرير لباسا للعامّة والخاصّة"[5]

كما كانت الزّراعة من الدّعائم الاقتصاديّة الهامّة، الّتي استمدّت استمراريّتها من غنى الطّبيعة الأندلسيّة وطواعيّتها للنّشاط الفلاحيّ، "أمّا المرج الفسيح غربي العاصمة، فهو غنيّ بالحقول الخصبة، الّتي تعطي أكثر من

[1] عتيق(عبد العزيز):الأدب العربيّ في الأندلس، دار النّهضة العربيّة- بيروت،1976م،ص127

[2] فرحات (يوسف شكري):غرناطة في ظلّ بني الأحمر (دراسة حضاريّة)،دار الجيل-بيروت،ط1، 1993 م،ص 102

[3] نفسه،ص100

[4] نفسه،ص 122

[5] نفسه،ص123.

موسمين في العام، وينتج ما يفيض أحيانا عن حاجات المملكة"[1]، ممّا كفل نوعا من الاستقرار الاقتصاديّ ،الّذي لا يعدم مراحل تذبذب بسبب القحط وتوالي انحباس المطر، هذا الانحباس الّذي سجّله عبد الكريم القيسي[2]:

يَـا مَـن يُؤَمَّـلُ لُطْفُـهُ عِنْـدَ الشَّـدَائِدِ والكُـرَبْ

أَنْـزِلْ عَلَيْنـا ربَّنـا مَطَـرًا كَـأفْواهِ القِـرَبْ

تجْبُـرْ بـهِ مِـنْ حَالِنَـا مَـا اخْتَـلَّ محْـلاً واضْـطَرَبْ

وُتبلِّـغ الـنَّفْسَ الّتـي يَئِسَـتْ بـهِ أَسْـنَى الأرَبْ

ويُعزى انهيار دولة بني الأحمر إلى فساد الأخلاق عند العامّة والخاصّة، وانغماس الحكّام في حياة التّرف الّتي استنزفت خزينة الدّولة وأثقلت كاهل المسلمين بالضّرائب والمغارم ،وهو حُكم يُستُبعد تعميمه، مع إثبات رواج الظّاهرة[3].

ونتساءل هل رافق هذه الاضطرابات السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة تقهقرٌ مماثل في الحركة العلميّة والأدبيّة، أم أنّ الأزمة تُولّد الهمّة؟

الحركة العلميّة والأدبيّة:

ازدهرت الحركة العلميّة والأدبيّة في دولة بني الأحمر، بفضل تشجيع حكّامها الّذين ساروا على خطى سابقيهم في العناية بصنوف العلوم والمعارف والفُنون، فهم "أحرص النّاس على التّميّز في هذا الجانب، والعالم عندهم مُعظّم من الخاصّة والعامّة"[4]

[1] فرحات (يوسف شكري)، المرجع السابق، ص 119

[2] القيسي(عبد الكريم): ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسيّ، تحقيق جمعة شيخة ومحمّد الهادي الطّرابلسي، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات(بيت الحكمة)-تونس،1988م،ص 346.

[3] يُنظر: الحسيني(قاسم):الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ(موضوعاته وخصائصه)،الدّار العالميّة للكتاب-المغرب،ط1، 1986م،ص33.

[4] المقّري: نفح الطّيب،ج1،ص181.

وقد ظلّ المسجد أهمّ المراكز العلميّة في مملكة غرناطة حتّى تأسّست المدرسة **النّصريّة (الّتي تعرف باليوسفيّة)** سنة خمسين وسبعمائة للهجرة، حيث أَمَّها العلماء والكتّاب والأدباء وطلّاب العلم من كلّ صوب.

وكان من ثمار هذا الازدهار في حركة التّعليم نشاط التّأليف والنّسخ ،فكانت الوِراقة كافلة لعيش الكفاف في هذا العصر، حتّى أنّ منهم من أثرى لاشتغاله بها، قال لسان الدّين بن الخطيب في ترجمة محمّد بن بيبش إنّه "كان متعيّشا من التّجارة في الكتب، أثرى منها وحسُنت حاله"[1]

وقد حظيت علوم القرآن الكريم والحديث والفقه بعناية خاصّة في هذه المرحلة، "فمن علماء التّفسير ابن جزي الكلبيّ(ت741هـ)،وأبو حيّان الغرناطي(ت745هـ)،وأبو عبد اللّه بن رشيد السّبتي(ت 711هـ)صاحب الرّحلة وإبراهيم بن موسى الشّاطبي الغرناطي صاحب الاعتصام والموافقات(ت790هـ)"[2]

كما امتاز عصر بني الأحمر بتعزيز الآداب، فنبغ في دولتهم جمهرة من الشّعراء أمثال :ذي الوزارتين وابن زمرك وابن خاتمة وابن حيّان، ويُعزى ذلك إلى العناية الّتي أولاها الحُكّام بالشّعر ،حيث تنافسوا في اجتذاب الشّعراء إلى بلاطاتهم ، وعقدوا لهم المجالس، فقد كان بلاط غرناطة "يسطع بتقاليده الأدبيّة الزّاهرة، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطّوائف، وكان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء. واشتهر عميدهم ومؤسّس دولتهم محمّد بن الأحمر، بحماية العلم والأدب، وكانت له أيّام خاصّة يستقبل فيها الشّعراء وينشدونه قصائدهم"[3]

ويرى بعض الباحثين أنّ المحن والظّروف العصيبة ،الّتي توالت على الدّولة النّصريّة قد بعثت إلى الشّعر بكثير من أسباب الانفعال والقوّة، "فامتلأت الأندلس يومئذ بالشّعر المؤسّى، والمراثي القويّة المؤثّرة، الّتي نقل لنا المقّري كثيرا منها"[4]، ممّا يجعلنا نذهب إلى القول بأنّ الإبداع عند بني الأحمر كان طريقة في الاحتجاج، والتّسامي على الأوضاع المتردّية الّتي شهدتها دولة الإسلام في نهاية دورتها الحضاريّة، فقد كانت الدّولة النّصريّة "أندلسا مصغّرة من الأندلس العظمى، فيها من سماتها وملامحها، وفيها من أَلَقِها وعنفوانها، ووجودها الحضاريّ"[5]

[1] ابن الخطيب(لسان الدّين):الإحاطة في أخبار غرناطة،ج3،ص27.

[2] بهجت(منجد مصطفى):الأدب الأندلسيّ من الفتح حتّى سقوط غرناطة، مديريّة دار الكتب للطّباعة والنّشر-العراق،1998،ص194.

[3] ابن الخطيب (لسان الدّين):اللمحة البدرية في الدّولة النّصريّة، تحقيق محبّ الدّين الخطيب، المطبعة السّلفيّة ومكتبتها –القاهرة 1347،هـ ص 31.

[4] عنّان(محمّد عبد اللّه):دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي-القاهرة،ط2، 1990م،ص453.

[5] الدّاية(محمّد رضوان):في الأدب الأندلسيّ، دار الفكر-دمشق،2000م،ص 40.

الفصل الأول: الشعر الديني، بواعثه وتجلّياته في عصر بني الأحمر

المبحث الأول: النّزعة الدّينيّة في عهد بني الأحمر:

شكّلت النّزعة الدّينيّة ملمحا بارزا ،طبع النّتاج الأدبيّ الأندلسيّ على امتداد عصوره المتعاقبة، في بيئة كانت مهيّأة لاحتضان كلّ أشكال النّشاط الدّينيّ، حيث يصف ابن خلدون(ت808هـ) شبه جزيرة الأندلس بأنّها "مأوى الصّالحين والزّهّاد والفقهاء والعُبّاد"[1].

وعلى أعتاب دولة بني الأحمر تُطالعنا صورة مؤثّرة لدخول أوّل أمرائها محمّد بن الأحمر(ت671هـ) غرناطة يقول ابن الخطيب(ت 776هـ): "حدّث أبو محمّد البسطمي قال: عاينته يوم دخوله ،عليه شاية مَلْف* مضلّعة أكتافها ممزّقة (...)وكان يخصف النّعل ويلبس الخشن ،ويؤثر التّبذّي ويستشعر الجدّ في أموره"[2]. بما يرسم معالم طريقة سلوكيّة قوامها التّقشّف والإعراض عن متاع الحياة الدّنيا، يسير عليها عامّة النّاس ممّن أدركوا مُبكّرا أنّ بقاءهم بالأندلس رهين ببقاء الإسلام والتزام أحكامه ،وهم لذلك أولوا الفقه والعلوم الدّينيّة عنايتهم "وللفقه رونق ووجاهة ،وكانت سمة الفقيه عندهم جليلة"[3]ممّا جعل "أحوال هذا القطر في الدّين وصلاح العقائد أحوالا سنيّة والأهواء والنّحل فيهم معدومة ومذهبهم على مذهب مالك بن أنس أمام دار الهجرة جارية"[4]، فسادت الرّوح الدّينيّة بين طبقات المجتمع كافّة، وكثُر الزُّهّاد والنُّسّاك الّذين كانوا يعُضّون على دينهم بالنّواجذ في رباطات بعيدة عن الصّخب المعيشيّ، ويشير ابن الخطيب إلى وجود "رابطة المتصوّفين في حيّ البيازين بغرناطة ،بإشراف أبي أحمد جعفر الّذي كان يجمع المصلّين كلّ ليلة فيصار إلى تلاوة آي القرآن الكريم ،وإلى عقد حلقات الذّكر وسماع أشعار المتصوّفين المشهورين ولا سيما الحلّاج، وغير بعيد عن غرناطة كان يقع غربي المدينة رباط العقاب المشهور ،وفي هذا الرباط قضى ابن سبعين والشّشتري قسما من حياتهما".[5]

ويرى الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة أنّ الدّين مثّل قضيّة كبرى من قضايا الشّاعر الأندلسيّ في هذه المرحلة، فهو يتناوله من خلال "الزهد والتّصوّف والمواعظ والاعتبار والمدائح النّبويّة والتّوسّل والمولديّات والمناجاة

---

[1] ابن خلدون(عبد الرّحمان):شفاء السّائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمّد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر-صنعاء،ط1، 1997،ص21.

[2] ابن الخطيب(لسان الدّين):اللمحة البدرية في الدّولة النّصريّة، ص 30.

[3] المقّري(أحمد بن محمّد) :نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ،ج1 ص 206.

[4] ابن الخطيب: اللّمحة البدريّة، ص 27.

ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 461-463

* الشّاية أو الشّاشيّة(كما في الإحاطة ج2،ص99) هي الطّربوش المغربيّ وهو لباس قوميّ في المغرب القديم. الملْف: الجوخ المنسوج من الصّوف.

وكلّها موضوعات دينيّة بصورة كلّيّة أو غالبة، كما أنّ الدّين يدخل في قصائد أخرى بصورة جزئيّة أو سائدة وذلك في موضوعات الجهاد والاستغاثة والحنين إلى الأوطان والحجازيّات ووصف الطّبيعة والرّثاء والمدح وغيرها"[1]

ومن خلال ما سبق يمكن استنباط مجموعة من العوامل، الّتي كانت تقف وراء سيادة الرّوح الدّينيّة في عصر بني الأحمر:

الباعث السّياسيّ:

فقد كان للزّحف الصّليبيّ الّذي يتهدّد الوجود الإسلاميّ بالأندلس، إضافة إلى الفتن والثّورات الدّاخليّة أثر كبير في لواذ أهلها بجانب الدّين، يستعينون به على غوائل الأزمات الّتي تتقاذفهم وتوهن قواهم ،ولقد عبّر الكاتب الموحّدي أبو القاسم أحمد الإشبيلي عن هذا الأثر المرير للحرب تعبيرا بليغا صادقا حين قال: "ولو شاهدتَ ما نحن فيه من اشتعال الفتنة واشتغال أصناف النّاس بأنواع المحنة ،لذهلت عن تلفيق كلمتين"[2] حيثُ خلّفت هذه النّكبات الّتي ألمت بالمجتمع الغرناطيّ شعورا حادّا بفقدان الأمان والاستقرار، أسلمهم إلى حالة من اليأس والخيبة الّتي زادت من حاجتهم إلى مصدر روحيّ يمدّهم بالثّقة والطّمأنينة.

الباعث الاجتماعيّ والاقتصاديّ:

كما كان للانقسام الطّبقيّ للمجتمع آنذاك أثره في التّوجّه الأخلاقيّ والدّينيّ لأفراده، ففي الوقت الّذي اتّجهت فيه طبقة الأغنياء إلى حياة اللّهو ومجالس الأنس، بما توفّر بين أيديها من أسباب الرّخاء ،وجدت طبقة الفقراء سعادتها في الحبّ الإلهيّ ومسلك الإعراض عن زخرف الدّنيا ،حيث يرى الدّكتور مصطفى الشّكعة أنّه "كان لمسلك التّطرّف عند الأندلسيّين في الإقبال على منهل اللّذات دافع إلى طرف آخر بعيد كلّ البعد عن المتعة الحسّيّة وهي المتعة الرّوحيّة الّتي كان ثمرتها ظهور النّسك ثمّ التّصوّف"[3]،ولذلك جاءت النّزعة الدّينيّة كتيار مضادّ لما أل إليه المجتمع الغرناطيّ من انحلال خلقيّ، بهدف الإصلاح وخلق التّوازن في الحياة الاجتماعيّة.

---

[1] الهرامة (عبد الحميد عبد اللّه): القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري (الظّواهر والقضايا والأبنية) ،دار الكاتب- طرابلس، ط 2،1999م ص 439

[2] بن موسى(ابن سعيد عليّ):اختصار القدح المعلّى في التّاريخ المحلّي، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، 1959، **نقلا عن** البلداوي (حميدة صالح): فلسفة التّصوّف في الشّعر الأندلسيّ من العهد المرابطي حتّى نهاية الحكم العربيّ، الدّار العربيّة للموسوعات-لبنان،ط1 2011م، ص54.

[3] الشّكعة مصطفى: الأدب الأندلسيّ موضوعاته وفنونه ،دار العلم للملايين-بيروت، 1975م،ص 68

إضافة إلى المجاعات والأوبئة الّتي عصفت بالأندلس، ولعلّ أبرزها: الوباء الكبير سنة 749هـ الّذي اجتاح المشرق والمغرب وراح ضحيّته الكثير من أهل الأندلس ،وقد ألّفت فيه الرّسائل ومنها "رسالة ابن الخطيب الموسومة بمقنعة السّائل عن المرض الهائل؛ ورسالة شاعر ألمرية ابن خاتمة تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"[1]،كما عرف المجتمع الأندلسيّ أيّام بني الأحمر أمراضا أخرى كانت على أيّامهم غير قابلة للشّفاء، "منها مرض الجذام أو الرّصّ، الّذي كان نادرا ومحصورا".[2]

ولا يخفى ما للتّذبذب الاقتصاديّ من انعكاسات سلبيّة على الحياة الاجتماعيّة، حيث تعمّ الفاقة فيُقذف النّاس في لُجّة الحاجة والاصطراع على تحقيق الكفاف المعيشيّ، ممّا يلفت انتباههم إلى تقلّبات الدّهر، الّتي تمثّل الأزمات الاقتصاديّة أحد مظهراتها.

الباعث الدّينيّ:

ويتجلّى من خلال:

نشاط الجهاد والمرابطة: كانت لفظة رباط تعني في البداية موضع تجميع الخيل وربطهم بقصد الجهاد في سبيل اللّه استنادا إلى قوله تعالى: " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ " (الأنفال٦٠)،ثمّ أصبح الرّباط عبارة عن بناء يجمع بين الوظيفة العسكريّة والدّينيّة ،"فصار مكانا للعبادة وتداول العلم واعتكاف المتصوّفة"[3].

إلى جانب تولّي جماعة الصّوفيّة والزّهّاد لمهمّة الخطابة في مساجد غرناطة وما حولها ،ممّا أتاح لهم طرح أفكارهم من موقع له هيبته ووقاره في نفوس العامّة[4]،إضافة إلى اتّصال الأندلسيّين بالمشارقة في رحلاتهم للحجّ وطلب العلم، فاتّسعت معارفهم في الفقه واللّغة ممّا أضفى مسحة دينيّة على مختلف أشكال نشاطهم الفكريّ والثّقافيّ.

غير أنّ هذا التّأثير المشرقيّ لا يُلغي الطّابع الذّاتيّ للتّديُّن، بما ينطوي عليه من دوافع نفسيّة واجتماعيّة أمْلَتها ظروف المجتمع الغرناطيّ.

[1] البلداوي(حميدة صالح):فلسفة التّصوّف في الشّعر الأندلسيّ من العهد المرابطي حتّى نهاية الحكم العربيّ، ص 64.

[2] فرحات يوسف شكري:غرناطة في ظلّ بني الأحمر (دراسة حضاريّة)،ص 114.

[3] البلداوي(حميدة صالح):فلسفة التّصوّف في الشّعر الأندلسيّ ص51

[4] يُنظر الهرامة(عبد الحميد عبد اللّه): القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري (الظّواهر والقضايا والأبنية)،ص 478

بينما يرى بطرس البستاني رأيا مخالفا مفاده أنّ المؤسّسة الدّينيّة كانت وراء فرض نمط محدّد من السّلوك ذي الصّبغة الدّينيّة تتزيّا به العامّة، يقول "ومن غير العجيب أن يظهر فنّ الزّهد في الأندلس ،وقد علمنا ما للفقهاء من سلطان على الخاصّة والعامّة ،فلابدّ لهذا السّلطان أن يقود إلى التّعصّب للدّين، والتّمسّك بأحكامه ،ثمّ إلى التّظاهر بالعبادة والتّقوى، والنّفور من الدّنيا وزينتها، والابتعاد عن زخرفها وغرورها ،فيكثر الشّعراء المتزهّدون حتّى يصبح الزّهد صناعة مطلوبة وزيّا مرغوبا فيه ،فمنهم من ينظم بعامل التّقوى والصّلاح ،ومنهم من ينظم اقتداء بغيره وإرضاء للفنّ. ومنهم من ينظر إلى الحياة الدّنيا نظرة خائف فيذمّ غرورها ،ويذكر ذنوبه، وجنونه بملذّات الحياة فيندم ويعتذر إلى اللّه، ثمّ يعود إلى عبثه ومعاصيه"[1].

وهو رأي يفنّده الواقع التّاريخيّ، الّذي يُسجّل نزوعا دينيّا صادقا لأهل المغرب والأندلس منذ القرون الأولى التّالية للفتح الإسلامي، بما يتماشى مع طبيعة المجتمع البربريّ الغالب على التّركيبة السّكّانيّة للمنطقة ،فهي "طبيعة تفانٍ وتصوّف واستخفاف بالحياة"[2] .

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ اتّجاه الغرناطيّين إلى الدّين كان نوعا من العزاء لنفوس أرهقتها المحن و النّزاعات الّتي استطالت بالأراضي الأندلسيّة، فأشهرت سلاح الإيمان في مواجهة رهانات الواقع زمن انحسار الدّولة الإسلاميّة.

[1] البستاني بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار المكشوف ودار الثّقافة- لبنان،ط6،1968م، ص 62.

[2] مؤنس حسين: فجر الأندلس، دار الرّشاد-القاهرة،ط1، 1959م،ص 389.

المبحث الثاني: أغراض الشعر الديني

1- تعريف الزهد (لغة واصطلاحا):

الزّهد ظاهرة إنسانيّة، تُمثّل استجابة النّفس إلى نداء الفطرة، الّتي أوزعها اللّه سبحانه وتعالى بصيرة الاهتداء إلى مصدر وجودها، سالكة درب التّطهّر ممّا علق بها من غبش المغريات الدّنيويّة.

تدور مادّة (زَهَد) في اللّغة حول الإعراض عن الدّنيا ،ويعرّفه ابن دريد(ت321هـ) بقوله : "الزّهد خلاف الرغبة و الزّاهد في الدّنيا : التّارك لها و لما فيها " [1] .

ذلك أنّ التّرك والاستغناء بُرهان زوال الرّغبة، وهي من جنس الإرادة الّتي تبعث على الإقبال على الشّيء أو الإدبار عنه.

أما عند ابن سيدة(ت458هـ) " فالزهد – في الدين خاصة – ضد الحرص على الدنيا، والزهادة- في الأشياء كلها – ضد الرغبة " [2] .ويظهر في هذا التّعريف الرّبط بالدّين، باعتباره مرجعا للسّلوك البشريّ، ضمن زمنيّة وجوده الدّنيويّ.

ويتّفق ابن منظور(ت 711هـ) مع التّعريفين ،حيث يرى أنّ " الزهد ضدّ الرّغبة و الحرص على الدنيا والزَّهادة في الأشياء كلّها ضدّ الرّغبة [3].

فقد أجمعت هذه التعريفات على أنّ الزّهد ضدّ الرغبة، ونقيض الرّغبة في الشّيء هو العزوف والإعراض عنه.

اصطلاحا:

يحمل **الزّهد** معنى الإعراض عن الدّنيا، والعزوف عن ملذّاتها، ممّا يقتضي مجاهدة النّفس ومغالبة أهوائها وهو جانب كسبيّ يضطلع به العبد، في مسعاه للظّفر بنعيم الدّار الأخرة.

---

[1] ابن دريد (أبو بكر محمّد بن الحسن):جمهرة اللغة ،مكتبة المثنى – بغداد، ط1،1345هـ ،باب الدال والزاي، مادة (ز هـ د)

[2] ابن سيدة (أبو الحسن عليّ بن إسماعيل):المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 2000م ج4، ص 228.

[3] ابن منظور(أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم):لسان العرب ،دار صادر – بيروت،ط1، 1990م، مادة (ز هـ د).

ويشترط الإمام وكيع بن الجرّاح(ت197هـ) في الإعراض عن زخرف الدّنيا، عنصر "القُدرة" على استخلاص ملذّاتها، والامتناع عنها طوعا "فالفقير لا يستطيع أن يزهد في المال ويتقلّل فيه، لأنّه لا يجده وهكذا العاجز عن ارتكاب محرّم لأسباب لا يقال زاهدا في هذا الحرام، بل الّذي تجنّبه مع القدرة عليه ينطبق عليه وصف الزّاهد"[1]

فالإنسان كائن مخيّر بمقتضى إكرامه بالعقل، الّذي جعله اللّه سبحانه وتعالى مناط التّكليف والاختيار قال اللّه تعالى:" وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)" (سورة البلد 10).

ويُؤيّد هذا الطّرح الإمام الغزاليّ(ت505هـ)، فالزّهد عنده "أن تأتي الدّنيا الإنسان راغمة صفوا عفوا، وهو قادر التّنعّم بها من غير نقصان جاه، وقبح اسم، فيتركها خوفا من أن يأنس بها، فيكون آنسا بغير اللّه محبّا لما سوى اللّه ويكون مشركا لما في حبّ اللّه غيره" [2]،وذلك درءً لكلّ حبّ يزاحم في القلب حبّ اللّه عزّ وجلّ، وغالبا ما يأخذ هذا الحبّ الآخر شكل التّعلّق بأعراض الدّنيا، الّتي تستميل النّفس بزخرفها، فترغب إليها ،ممّا يرفع سقف المجاهدة النّفسيّة في الانصراف عمّا وقر في النّفس الميل إليه، " وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبا بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوبا فيه ولا مطلوبا في نفسه لم يُسمّ زاهدا، إذ أنّ تارك الحجر والتّراب وما أشبهه لا يُسمّى زاهدا، وإنّما يُسمّى زاهدا من ترك الدّراهم والدّنانير، لأنّ التّراب والحجر ليسا في مظنّة الرّغبة".[3]

أمّا شيخ الإسلام ابن تيمية(ت728هـ) فيضع حدّا فاصلا بين الزّهد وما قد يلتبس به من البدعة حينما يقرّ أنّ الزّهد في المنافع الخالصة "حُمق"، حيث يرى أنّ الزّهد يكون "عمّا لا ينفع، إمّا لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحا، لأنّه مُفوّت لما هو أنفع منه، أو محصّل لما يربو ضرره على نفعه، وأمّا المنافع الخالصة أو الرّاجحة فالزّهد فيها حمق"[4].

ذلك أنّ الزّهد الإسلاميّ ينسجم مع المنطق السّليم في وسطيّته، بين أداء الواجب الدّينيّ ، الّذي يتداخل مع تفاصيل الحياة، وحفظ نصيب النّفس من المنافع الّتي تُعين على الوفاء بمتطلّبات الشّريعة.

---

[1] ابن الجرّاح (وكيع): كتاب الزّهد، تحقيق عبد الرّحمان عبد الجبّار الفريوائي، مكتبة الدّار–المدينة المنوّرة، ط1، 1984م، ص 127.

[2] الغزالي (أبو حامد محمّد بن محمّد بن أحمد):إحياء علوم الدّين، دار ابن حزم–لبنان،ط1، 2005م،ص1571.

[3] المرجع نفسه ،الصّفحة نفسها.

[4] ابن تيميّة(أحمد بن عبد الحليم):مجموع فتاوى، جمع وترتيب عبد الرّحمان بن محمّد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف–المملكة العربيّة السّعوديّة،2004م، ص615.

ومن الباحثين من خلع على الزّهد معنى مغايرا ،يقول الدّكتور مصطفى فتحي أبو شارب: "ويفترض في متتبّعي هذا المذهب أن يتجرّدوا للّه ويعكفوا على صلواتهم في خلوة من البشر متجرّدين من التّرف وزخرف الدّنيا لا يبتغون عرضا من أعراضها ولا مطلبا من مطالب الحياة المادّيّة الّتي يقبل عليها الإنسان العادي."[1].

ونرى أنّه تعريف بعيد عن المعنى الإسلاميّ المعتدل للزّهد لما فيه من إقصاء لجانب المعاملات الإنسانيّة وعمارة الأرض ،الّتي جعلها اللّه ذخرا وزادا للعبد في أخراه ،فالإنسان يزهد في المتاح من المحرّمات ،لأنّ الزّهد لا يعني بحال من الأحوال ترك الأسباب وعدم الأخذ بها ،ولا الفرار من المسؤوليّة الفرديّة والجماعيّة، ولا اللّجوء إلى العزلة الّتي تتنافى مع الطّبيعة الاجتماعيّة للوجود البشريّ. قال اللّه تعالى:" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)"(**سورة القصص 77**).

لذلك يقتضي العقل الرّاجح ، أن يؤْثر الإنسان الحياة الأخرويّة، لما ارتكز بفطرته من إدراك لمصدر وسبب وجوده ولما تهيّأ له من أسباب ومقوّمات وجب استغلالها لأداء الوظيفة المنوطة به، وهي عبادة اللّه عزّ وجلّ: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) (سورة الذاريات56)،هذه العبادة الّتي تقف دونها نوازع النّفس ورغائبها لذلك حثّنا الدّين الإسلاميّ على ترويضها وكبح جماحها، قال اللّه تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)" (سورة آل عمران 14)،فالإنسان في دنياه لا يفترّ يُغالب هواه، فيُنبّه قلبه من غفوته كلّما أخذه وسن الرّكون إلى نعيمها الزّائل، ولا يني يشحذ الهمّة للاستزادة من ذخيرة اليوم المنتظر القريب، قال رسول اللّه–صلّى اللّه عليه وسلّم–: " إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[2].

فإرساء هذه القاعدة الدّينيّة وغرسها في الذّهن ،يسمح للإنسان أن يمضي قُدُما في مضمار الحياة، غير خائض في لججها المتلاطمة، لأنّها بالمقياس الأخرويّ سراب يحسبه الظّمآن ماءً ،قال –صلّى اللّه عليه وسلّم– "ما الدّنيا في الآخرة إلّا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ، فلينظر بم ترجع"[3]

ولا يستقيم الزّهد في الدّنيا حسب ابن القيّم الجوزيّة(ت751هـ) إلّا بعد نظرين صحيحين:

[1] أبو شارب(مصطفى فتحي):الشّعراء المروانيّون في الأندلس، دار المفردات للنّشر والتّوزيع–المملكة العربيّة السّعوديّة ،ط1، 1999م، ص 258.

[2] ابن أبي الدّنيا(أبو بكر عبد اللّه بن محمّد):الزّهد لابن أبي الدّنيا، دار ابن كثير–دمشق،ط1،1999م، رقم الحديث 78

[3] .حديث صحيح أخرجه مسلم في كتاب الجنّة من صحيحه " والتّرمذي ،وابن ماجة في "الزّهد" في سننيهما ،وأخرجه أحمد في المسند

الأوّل: "**نظر في الدّنيا** وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخسّتها ،وألم المزاحمة والحرص عليها وما في ذلك من الغصص والنّغص والإنكاد ،فطالبها لا ينفكّ من همّ قبل حصولها ،وهمّ في حال الظّفر بها وغمّ وحزن بعد فواتها" [1] **والثّاني**: "**نظر في الآخرة** وإقبالها ومجيئها المؤكّد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرّات"[2].

فعقد هذه الموازنة يقضي بالتزام الزّهد في الدّنيا ،على محبّتها وتعلّق النّفس بها، لتَبيُّن فضل الآجل على العاجل والغائب على الحاضر، وفي ذلك تقدير دقيق لحجم الدّنيا في ميزان النّفس المقبلة على ربّها العارفة برساليّة وجودها ،قال تعالى: "وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)"(سورة الأعلى 17)،فالدّنيا دار بلاء لا تنفكّ تمزج سرورها بالكدر، قال اللّه تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)(سورة الحديد 20).

[1] الجوزيّة (ابن القيّم): الفوائد، تحقيق عصام الدّين الصبابطي، دار الحديث –القاهرة،ط2، 1994م، ص 117.
[2] نفسه، ص118.

شعر الزّهد:

كانت الانطلاقة الفعليّة لشعر الزّهد في الأندلس على يد الفقهاء ،وذلك "في أعقاب الثّورة على الحَكَم الرّبضي(206هـ)"[1]،وكانت في تلك الفترة أشعارا في الزّهد ينظمها الأتقياء ،ويتغنّون بها في اللّيل ويضمّنونها التّعريض بالحَكَم لما كان عليه من عصيان ،مثل أن يقولو: "يا أيّها المسرِف المتمادي في طغيانه المصرّ على كِبْره المتهاون بأمر ربّه أفق من سكرتك وتنبّه من غفلتك"[2]

ويشير بعض الباحثين إلى هذه الظّاهرة فيقول: "وفي مطلع القرن الرّابع عشر (الثّامن الهجريّ) مال عدد من الأدباء إلى الشّعر الزّهديّ والصّوفيّ"[3]

ويُعلّل ذلك بقدوم مهاجرين من الهند وسمرقند وتبريز وخراسان واستقرارهم في الأندلس وإسهامهم في إبراز تيار الزّهد[4].

في حين يرى آخرون أنّ ظاهرة الزّهد في الأندلس قد بدأت مبكّرا "مع أولى موجات الفتح الإسلاميّ حيث كان هناك بعض التّابعين الّذين دخلوا الأندلس للجهاد والمرابطة، واشتهروا بالورع والتّقوى والزّهد في الدّنيا"[5].وهو رأي تؤكّده المصادر التّاريخيّة الّتي سجّلت حركة نزوح واسعة للمسلمين من المشرق العربيّ إلى بلاد المغرب والأندلس بعد أن استتبّ سلطان الإسلام بها.

مضامين شعر الزّهد في عهد بني الأحمر:

تدور معاني زهديّات شعراء بني الأحمر حول الدّعوة إلى الإعراض عن الدّنيا ،والإقبال على العمل الصّالح استعدادا للقاء المولى عزّ وجلّ، وقد صوّر شعراء هذا العصر في أشعارهم "قدوم الموت، والحديث عنه على أنّه غاية مرجوّة ،وذمّ الدّنيا لأنّها فانية، والدّعوة إلى التّقوى والصّلاح وطاعة اللّه والتّذكير بقدرته وقضائه، والابتعاد عن كلّ ما فيه حساب الآخرة ،والاعتراف بالذّنوب والتّوبة والتّضرّع إلى الباري في الشّيخوخة، والابتعاد عن المجتمع بسبب انشغال الحكّام في الملذّات وابتعادهم عن مقارعة العدوّ".[6]

---

[1] عبّاس إحسان :تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ،دار الثقافة –بيروت، 1969م ،ص 116.
وهي ثورة دينيّة قادها فقهاء قرطبة سنة 200هـ،محرّضين فيها النّاس على الحَكَم بن هشام ومنشدين أشعارا في الزّهد.

[2] المراكشي(عبد الواحد):المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع –القاهرة،1998م ،ص30

[3] فرحات يوسف شكري:غرناطة في ظلّ بني الأحمر (دراسة حضاريّة) ،ص 131.

[4] يُنظر المرجع نفسه،ص132

[5] البلداوي (حميدة صالح):فلسفة التّصوّف في الشّعر الأندلسيّ، ص40.

[6] طويل يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسيّ، دار الفكر اللّبنانيّ–لبنان،1991م،ص128

1.غرور الدّنيا وزوالها وبُطلانها:

يقول ابن خميس التّلمساني(ت708هـ)[1]:

تُرَاجِـعُ مِـنْ دُنْيَـاكَ مَـا أَنْـتَ تَـارِك وَتَسْـأَلُهَا العُتْبَـى وَهَـا هِـيَ فَـارِك

تُؤَمَّـلُ بَعْـدَ التَّـرْكِ رَجْـعَ وِدَادِهَـا وَشَـرُّ وِدَادٍ مَـا تَـوَدُّ التَّرَائِـك

فالشّاعر يُصوّر الدّنيا امرأة لئيمة تبغَض زوجها، وتصدّ كلّ محاولاته لاسترضائها، فهو في كلّ مساعيه خائب، وهو حال العبد الّذي استحوذت الدّنيا على قلبه، فهو منشغل بها حريص على تحصيل ملذّاتها.

أمّا أحمد بن صفوان فيقرّ حقيقة أنّ الدّنيا دار بلاء ،لا تزال تستهوي الإنسان الجاهل، الّذي لم يدرك زيفها[2]:

حَـدِيثُ الأَمَـانِ فِـي الحَيَـاةِ شُـجُونُ إِنْ أَرْضَـاكَ شَـأْنٌ أَحْفَظَتْـكَ شُـؤُونُ

يَمِيـلُ إِلَيْهَـا جَاهِـلٌ بِغُرُورِهَـا فَمِنْـهُ اشْـتِيَاقٌ نَحْوَهَـا وَأَنِـينُ

تَجَـافَ عَـنِ الـدُّنْيَا وَدِنْ بِاطّرَاحِهَـا فَمَرْكَبُهَـا بِـالمُطْمِعِينَ حَـرُونُ

2.التّوبة والإنابة إلى اللّه عزّ وجلّ:

يقول ابن خاتمة[3]:

فُتِنْـتُ بِـدُنْيَا جَـاذَبَتْنِي أَعِنَّتِـي فَمَـالِيَ لَا أَبْكِـي لِـذَلِكَ مَالِيَـا

لَقَـدْ فَـتَحَ الـرَّحْمَنُ أَبْـوَابَ عَفْـوِهِ لمَـنْ رَاجَـعَ الـذِّكْرَى وَأَقْبَـلَ خَاشِـيَا

إِلَهِـي لَا تَفْضَـحْ عَـوارًا سَـتَرْتَهُ فَمَـالِي مَـأْمُولٌ سِـوَاكَ إِلَهِـيَ

[1] المقّري (أحمد بن محمّد):نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب ج6 ،ص298 /الفارك هي المرأة الّتي تبغض زوجها، والعُتبى هي الاسترضاء

[2] ابن الخطيب (لسان الدّين) :الإحاطة في أخبار غرناطة ج1 ص96

[3] ابن خاتمة (أحمد بن عليّ):ديوان ابن خاتمة الأنصاريّ ،تحقيق محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر المعاصر-لبنان،ط1، 1994م، ص 13

هَلَكْــتُ رَدًى إِنْ لَــمْ أَنَــلْ مِنْــكَ رَحْمَــةً تُبَعِّــــدُ رَوْعَــــاتِي وَتُــــدْنِي أَمَانِيَــــا

لَعَــلَّ الَّــذِي قَــامَ الوُجُــودُ بِجُــودِهِ يُعِيــدُ بِحُسْــنِ اللُّطْــفِ حَــالِيَ حَالِيَــا

يرى الشّاعر أنّ انصرافه إلى متاع الدّنيا موجِبٌ للحسرة والبكاء، غير أنّه يعود ويقول إنّ اللّه –جلّ شأنه– فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشيا منيبا ،ويدعو اللّه أن يستر عيوبه ويرحمه برحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفيّاض على الوجود أن يعيد حاله حاليا مزدانا.

يقول ابن الخطيب[1]:

إِلهــــي بِالْبَيْــــتِ الْمُقَــــدَّسِ وَالمسْــــعَى وَجَمْــعٍ إِذَا مَــا الَخلْــقُ قَــدْ نَزَلُــوا جَمْعَــا

وَبــالمَوْقِفِ الَمشُــهُودِ يَــا رَبِّ فَــي مِنًــى إِذَا مَــا أَسَــالَ النَّــاسُ مِــنْ خَوْفِــكَ الــدَّمْعَا

وَبِالمُصْــطَفَى وَالصَّــحْبِ عَجِّــلْ إِقَــالَتِي وَأَنْجِــحْ دُعَــائِي فِيــكَ يَــا خَيْــرَ مَــنْ يُــدْعَى

صَــدَعْتُ وَأَنْــتَ الْمُسَــتغَاثُ جَنَابُــهُ أَقِــلْ عَثْرَتِــي يَــا مَــأْمَلِي وَاجْبُــرِ الصَّــدْعَا

فهو يتوسّل إلى اللّه عزّ وجلّ بمقدّساته :ببيت القدس والمسعى بين الصّفا والمروة في الحجّ وبجمع أو المزدلفة مجتمع الحجّاج، وبموقفهم في منى متبتّلين إلى ربّهم، وبالرّسول–صلّى اللّه عليه وسلّم– وصحبه الأخيار أن يتجاوز عن سيّئاته وأن يقبل منه دعاءه ،فقد جهر بذنوبه ولاذ بجنابه، وإنّه ليستغيث به ضارعا إليه أن يقيله من عثرته ويجبر الصّدع أو الشّقّ البيّن في أعماله[2].

[1] المقّري (شهاب الدّين أحمد بن محمّد):أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، المعهد الخليفي للأبحاث المغربيّة–المغرب،271/1.

[2] ينظر ضيف شوقي: تاريخ الأدب العربيّ (عصر الدّول والإمارات –الأندلس–)،دار المعارف–القاهرة،1989م، ص 353.

يقول محمّد بن الحكيم اللّخمي في النّسك واللّجوء إلى اللّه[1]:

تَـــــوَلَّ أُمُـــــورِي وَلَا تُسَـــــلِّمَنِّي وَإِنْ أَنْـــــتَ أَسْـــــلَمْتَني أَهْلِـــــكِ

تَعَالَيْـــــتَ مِـــــنْ مُفْضِـــــلٍ مُـــــنْعِمٍ وَنُزِّهْـــــتَ مِـــــنْ طَالِـــــبٍ مُـــــدْرِكِ

حيث يستمسك الشّاعر بحبل اللّه تعالى، مفوّضا له أمره وطالبا عنايته ،مؤمنا أنّ من يتوكّل على اللّه فهو حسبه، لأنّه المنّان على خلقه بواسع فضله.

يقول محمّد بن عبد الواحد التّلوي[2]:

إِلَهِـــي أَجِرْنَـــي إِنَّنِـــي لَـــكَ تَائِـــبُ وَإِنِّـــيَ مِـــنْ ذَنْبِـــي إِلَيْـــكَ لَهـــارِبُ

عَصَـــيْتُكَ جَهْـــلًا ثُـــمَّ جِئْتُـــكَ نَادِمًـــا مُقِـــرًّا وَقَـــدْ سَـــادَتْ عَلَـــيَّ الَمـــذَاهِبُ

فَخُـــذْ بِيَـــدِي وَاقْبَـــلْ بِفَضْـــلِكَ تَـــوْبَتِي وَحَقِّـــقْ رَجَـــائِي فِـــي الّـــذِي أَنَـــا رَاغِـــبُ

فالشّاعر يقف بين يدي بارئه مقرّا بذنوبه ،فارّا من آثامه الّتي مبعثها الجهل ، إلى رحمة اللّه تعالى الّتي ألفاها آخر المسالك المنجية.

ونجد المعنى ذاته في أبيات أبي القاسم بن أحمد الكلبي[3]:

يَـــا رَبِّ إِنَّ ذُنُـــوبِي اليَـــومَ قَـــدْ عَظُمَـــتْ فَمَـــا أُطِيْـــقُ لَهَـــا حَصْـــرًا وَلَا عَـــدَدَا

وَلَـــيْسَ لِـــي بِعَـــذَابِ النَّـــارِ مِـــنْ قِبَـــلٍ وَلَا أُطِيْـــقُ لَهَـــا صَـــبْرًا وَلَا جَلَـــدَا

فَـــانُظرْ إِلَهِـــي إِلَـــى ضـــعْفِي وَمَسْـــكَنَتِي وَلَا تُـــذِيقَنْني حَـــرَّ الَجحِـــيمِ غَـــدَا

[1] ابن الخطيب (لسان الدّين) :الإحاطة في أخبار غرناطة ،ج2 ،ص180

[2] نفسه،ج3 ص 167.

[3] ابن الخطيب :الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثّقافة-بيروت،ط1،1983م، ص47.

أمّا ابن خاتمة فيتطلّع إلى النّوافل الإلهيّة ،الّتي من شأنها أنْ تخفّف وطأة فاقته وعوزه[1]:

إِرْحَـــمْ عِبَـــادًا بِضَـــنْكِ الَعـــيْشِ قَـــدْ قَنَعُـــوا فَأَيْنَمَـــا سَـــقَطُوا بَـــيْنَ الـــوَرَى لَقَطُـــوا

إِذَا تَوَزَّعَـــــــتِ الـــــــدُّنْيَا فَمَـــــــالَهُمُ غَيْـــرَ الدُّجُنّـــةِ كَـــفٌّ وَالثَّـــرَى بُسُـــطُ

لَكِـــنَّهُمْ مِـــنْ ذُرَى عَلْيَـــاكَ فِـــي نَمَـــطٍ سَـــامٍ رَفِيـــعِ الـــذُّرَى مَـــا فَوْقَـــهُ نَمَـــطُ

3.النّفس الأمّارة بالسّوء وأثر المشيب:

قال أبو القاسم بن قطبة[2]:

نَفْـــسٌ تُطِيـــعُ مَـــدَى الزَّمَـــانِ هَوَاهَـــا يَـــا لَيْـــتَ لَـــي نَفْسًـــا تُعَـــارُ سِـــوَاهَا

كَـــمْ ذَا التَّشَـــاغُلُ والزَّمَـــانُ قَـــدِ انْقَضَـــى الشَّـــيْبُ أَقْبَـــلَ نَاصِـــحًا يَنْهَاهَـــا

تُمسِـــي وتُصْـــبِحُ فـــي الضَّـــلاَلِ كَأَنَّهَـــا عَمْيَـــاءُ لَا تُهْـــدَى سَـــبِيلَ هُـــدَاهَا

يصوّر الشّاعر حال النّفس البشريّة الّتي لا تفتر تطلب ملذّاتها في غير التفات إلى إصلاح شأنها ،برغم ما يلوح من بوادر رحيلها، فالشّيب أظهر نذير على تولّي الشّباب والقرب من الشّيخوخة والفناء.

أمّا ابن الخطيب فيعزّ عليه تصديق الدّنيا في أيّ وجه تبديه، مستعينا بدوره برمز الشّيب[3]:

دُنْيَـــا خَـــدَعْتِ الّـــذِي سَـــفِرْتِ لَـــهُ عَـــنْ صَـــفْحَةٍ لَـــمْ يَجُـــلْ بِهَـــا كَـــرَمُ

وَهَبْـــهُ نَـــالَ الّـــذِي أَرَادَ أَمَـــا بَـــيْنَ يَدَيْـــهِ المشِـــيبُ وَالهَـــرَمُ

[1] ابن خاتمة :ديوان ابن خاتمة الأنصاريّ، ص 22

[2] ابن الخطيب :الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة، ص70

[3] المقّري :أزهار الرّياض في أخبار عياض ص88.

2- مفهوم التّصوُّف:

أ – لغة :

اختلف العلماء والباحثون حول معنى التّصوّف وأصل اشتقاقه، حتّى أنّ القشيري(ت465هـ) عدّه "كلمة مبتدعة ومحدثة وغير معروفة، عند أوائل العرب ولا في عصر الرّسول-صلّى اللّه عليه وسلّم-"[1]

ينسب التّصوّف في جانبه اللّغويّ إلى **صوف الشّاة**، يقول ابن منظور: "الصّوف للضّأن وما أشبهه الصوف للغنم كالشَّعر للمعز والوبر للإبل ، و الجمع أصواف".[2]

وقد رجّح عدد من الباحثين هذه النّسبة، لجريانها على مقتضى اللّغة، ولأنّ التّصوّف مظهر التّقشّف والتّنسّك والتّعبّد[3]. كما أنّه كان لباس الأنبياء والصّحابة والتّابعين حسب كثير من كُتُب السّيرة.

وهناك من ينسبه إلى **الصّفاء** ،حيث "ينقل الكلاباذي أبو بكر بن محمّد الصّوفيّ المشهور عن الصّوفيّة أقوالا عديدة فقال: قالت طائفة :إنّما سمّيت الصّوفيّة صوفيّة لصفاء أسرارها ،ونقاء آثارها. وقال بشر بن الحارث الصّوفيّ من صَفَت للّه معاملته، فصفت له من اللّه عزّ وجلّ كرامتُه"[4]

غير أنّ هذه النّسبة لا يشهد لها قياس صرفيّ، ذلك أنّ النّسبة إلى الاسم الممدود، الّذي تكون همزته منقلبة عن أصل(واو أو ياء)،جاز إبقاؤها على حالها أو قلبها واوا، فتحيلنا في هذه الحالة على :صفائيّ وصفاويّ بإرجاع ألف "صفا" إلى أصلها واوا.

كما نُسِبَ إلى أهل **الصُّفّة** ،وهي الضّلّة (البهو الواسع عالي السقف) ؛"مكان مُضلّل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين و يرعاهم الرسول – صلى الله عليه و سلم – و هم أصحاب الصُّفّة"[5]

فنُسِب التّصوّف إلى كلّ من شابه مواصفاتهم في الورع والعكوف على العبادة، مع الإعراض عن عرض الدّنيا، وهو ما منحهم حُظوة عند النّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلّم-.

---

[1] القشيري(أبو القاسم):الرّسالة القشيريّة، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشّريف، دار الشّعب-القاهرة،1337هـ/1979م، ص464.

[2] ابن منظور(أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم):لسان العرب ،مادّة(ص و ف)

[3] ينظر القشيري: الرّسالة القشيريّة، ص 445.

[4] ظهير (إحسان إلهي) :التّصوّف المنشأ والمصادر، دار ابن حزم –القاهرة،ط1،2008م، ص 36.

[5] مبارك زكي: التّصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق، المكتبة العصريّة- لبنان،ط1، 2006م، ص17.

وفريق نسبه إلى **صوفة**، وهو: الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة ؛"رجل كان قد انفرد بخدمة الله سبحانه و تعالى عند بيته الحرام في الجاهليّة ، فانتسب الصّوفيّة إليه لمشابهتهم إيّاه ، في الانقطاع إلى الله"[1].

ونرى أنّه احتمال مُستبعد، بالنّظر إلى الفترة الزّمنيّة، الّتي وإن عرفت فيها العرب حياة روحيّة، إلّا أنّها لا ترقى إلى التّصوّف، يقول ابن الجوزي(ت 597هـ):"لو كان هذا الانتساب صحيحا لكان الانتساب للإسلام أولى من الجاهليّين"[2]

ويبقى الرّأي الأرجح، ذلك الّذي يذهب إلى نسبة التّصوّف إلى الصّوف، وينقل القشيري في رسالته قولا للسّهروردي (632هـ) عن ربط التّصوّف بمادّة الصّوف :وهذا الاختيار يُلائم ويُناسب من حيث الاشتقاق، لأنّه يقال تصوَّفَ إذا لبس الصّوف ،كما يقال تقمّص إذا لبس القميص، فنُسبوا إلى ظاهر اللّبسة وكان ذلك أبيَنَ في الإشارة إليهم، ويعقّب القشيري على ذلك بقوله: ولكنّ القوم لم يختصّوا بلبس الصّوف[3].

ب- التّصوّف في الاصطلاح :

وجد الإنسان ووجد معه منطق السؤال ،الّذي يوجّهه إلى سلوك طريق البحث عن المعرفة ،في محاولة لشقّ حجب المجهول ،وإماطة اللّثام عن ماهية الأشياء، مسكونا بهاجس محموم للإجابة عن "لماذا الكبرى" ،الّتي ظلّت ترافقه في كلّ طور من أطوار وجوده النّزّاع إلى الاتّصال بالعلّة الأولى، فاختبر سبلا ومسالك تتوخّى السّموّ بالرّوح في محاولاتها للانعتاق من ربقتها التّرابيّة.

ورد في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة أنّ التّصوّف "فلسفة حياة تهدف إلى التّرقّي بالنّفس أخلاقيّا، وتتحقّق بواسطة رياضات عمليّة معيّنة تؤدّي إلى الشّعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا لا عقلا وثمرتها السّعادة الرّوحيّة ،ويصعب التّعبير عن حقائقها بألفاظ اللّغة العاديّة"[4]

يجعل هذا التّعريف من التّصوّف فلسفة ونظرة في الحياة، فطريق الصّوفيّ تختلف عن طريق الباحث والعالم، ممّا يمنحها سمة التّجربة الخاصّة الّتي لها منهجها الذّوقيّ ،الّذي يضع القلب قبل العقل في التّرتيب ،بوصفه أداة بلوغ

[1] مبارك زكي: مرجع سابق، ص 19.

[2] ابن الجوزي(عبد الرّحمان):تلبيس إبليس، دار القلم- بيروت، 1340هـ،ص157-158.

[3] ينظر القشيري :الرّسالة القشيريّة ص 464.

[4] الموسوعة الفلسفيّة، معن زيادة وآخرون، مراجعة وتصحيح: عصماء نعمة ،مكتبة مؤمن قريش-بيروت،مج1،ط1، 1986م،ص258-259.

المعرفة في صيغتها اللّدنيّة. وهذا لا يتحقّق إلّا "بتصفية القلب عن موافقة البريّة ومفارقة الأخلاق الطّبيعيّة، وإخماد صفات البشريّة ،ومجانبة الدّعاوي النّفسانيّة، ومنازلة الصّفات الرّوحانيّة ،والتّعلّق بالعلوم الحقيقيّة"[1]

هذه التّصفيّة الّتي تقتضي صُنوفا من الرّياضات الرّوحيّة ،الّتي تتوخّى تهذيب النّفس وكسر غلوائها، حتّى تنشرح لاستقبال العلوم العلويّة المطلقة ،يقول عبد الحكيم حسّان:" ولا يصل الصّوفيّ إلى هذا الهدف إلّا بمجهود شاقّ طويل ،يرتكز على إماتة الرّغبات ،وكسر شرّة النّفس وألوان من الرّياضة رسمها الصّوفيّة ونظّموها وسمّوها "طريقا" وفي قمّة الطّريق يجد الصّوفيّ بغيته، فيطّلع على ما لا يمكن أن يطّلع عليه غيره ويشاهد من ألوان الجمال والجلال ما يعجز عن تصويره ،وهو لهذا يلجأ إلى عالم الحسّ ،يستعير منه ما يعينه على التّعبير عن مشاهداته في عالمه الرّوحيّ".[2]

ولا يخلو التّصوّف من الغاية الأخلاقيّة ،فهو في معنى من معانيه؛ "طريقة معيّنة في السّلوك، يتّخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقيّ، وعرفانه بالحقيقة، وسعادته الرّوحيّة"[3]

ومن مراميه: تحقيق السّموّ الخلقيّ، والتّحلّي بالفضائل ورعاية الأدب مع اللّه عزّ وجلّ، فهو علم يستند على المرجع الدّينيّ ،الّذي يجعل من الذّات الإلهيّة النّموذج الخلقيّ المحتذى، فالتّصوّف هو "التّخلّق بالأخلاق الإلهيّة، بالوقوف مع الآداب الشرعيّة ظاهرا"[4]

ونستنتج أنّ أهمّ خصائص التّصوّف: التّرقّي الخُلُقيّ، الفناء في الحقيقة المطلقة، العرفان الذّوقيّ المباشر الطّمأنينة والسّعادة، الرّمزيّة في التّعبير.

[1] الكلاباذي (أبو بكر بن محمّد):التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، مكتبة الخانجي-القاهرة،ط1،1352هـ،ص 34

[2] حسّان(عبد الحكيم):التّصوّف في الشّعر العربيّ الإسلاميّ (نشأته وتطوّره حتّى آخر القرن الثّالث الهجريّ)،دار العرب-سوريا،2010م،ص 34.

[3] الغنيمي(أبو الوفاء) :مدخل إلى التّصوّف الإسلاميّ، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع-القاهرة ،1988م،ص3.

[4] نفسه ص 45.

الرّمز في الشّعر الصّوفيّ:

اصطنع الصّوفيّة لأنفسهم لغة مخصوصة، يُوارون خلفها تجربتهم الذّوقيّة، فتوسّلوا بالرّمز الشّعريّ وأسبغوا عليه دلالات اصطلاحيّة تحتجن مُواضعاتهم العرفانيّة، الّتي لا يتسنّى فهمها إلّا لمن كان منخرطا في زمرة السّالكين.

ويقف الدّارس للشّعر الصّوفيّ على رموز ثلاث، ارتكزت عليها الممارسة اللّغويّة الصّوفيّة ،هي رمز المرأة، رمز الطّبيعة و رمز الخمرة.

1- رمز المرأة:

استرفد الشّاعر الصّوفيّ من تجارب العذريّين ثيمة المرأة ،الّتي غزل بخيوطها نسيج قصائده، فناشد فيها الجانب الجماليّ الإستيطيقيّ ، الّذي اتّخذه مكافئا رمزيّا للمحبّة الإلهيّة ،حيث لا تأخذ لفظة المرأة في الاصطلاح الصّوفيّ ذلك المعنى المضادّ للذّكر ،بل هي رمز الخصوبة والرّحم الكونيّ ،وهي **مجلى للجمال** الإلهيّ ،فهي "أسمى مظهر للتّجلّي الإلهيّ لدى الصّوفيّة جميعهم، باعتبارها أجمل المخلوقات على الإطلاق"[1]،ذلك أنّ" أهمّ صفات الألوهيّة ليست الإرادة المطلقة المسيطرة على كلّ شيء ،بل الجمال والحبّ المنبثّين في سائر أنحاء الوجود "[2] لذلك وجدنا كثيرا من المتصوّفة يتّخذون الغزل مطيّة للتّعبير عن مواجدهم.

يقول ابن زمرك في قصيدة يبتدئها بالنّسيب يتّضح فيها أثر التّصوّف[3]:

رَضِـــيتُ بِمَـــا تَقْضِـــي عَلَـــيَّ وَتَحْكُـــمُ أُهَـــــانُ فَأُقْصَـــــى أَمْ أُعَـــــزُّ فَـــــأُكْرَمُ

إِذَا كَـــانَ قَلْبِـــي فِـــي يَـــدَيْكَ قِيَـــادُهُ فَمَـــالِي عَلَيْـــهِ فِـــي الهَـــوَى أَتَحَكَّـــمُ

عَلَـــى أَنَّ رُوحِـــي فِـــي يَـــدَيْكَ بَقَاؤُهَـــا بِوَصْـــلِكَ تَحْيَـــا أَمْ بِهَجْـــرِكَ تُعْـــدَمُ

[1] كعوان محمّد :التّأويل وخطاب الرّمز :قراءة في الخطاب الشّعريّ الصّوفيّ المعاصر، دار بهاء الدّين -الجزائر ،ص 487

[2] عفيفي أبو العلا: التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام ،دار الشّعب-بيروت،1933م،ص 191

[3] ابن زمرك(محمّد بن يوسف الصّريحي) :ديوان ابن زمرك الأندلسيّ، تحقيق محمّد توفيق النّيفر، دار الغرب الإسلاميّ-بيروت،ط1، 1997م، ص109

ومن أحكام الهوى الرّضا بما يشاء المحبوب ،ومع الرّضا تكون المجاهدة والتّجلّد على تباريح الوجد ،الّذي يستبدّ بقلب المحبّ إزاء المحبوب الّذي عزّ وصاله ،حيث تكون العزّة الإلهيّة مطمحا عصيّا يُذكي في قلب المريد نار الأسى، الّتي تمحق الرّوح شوقا إلى شهود تجلّيها.

فالشّاعر يريد مكاشفة الحضرة الإلهيّة، وما يثبت ذلك قوله في تتمّة القصيدة:

وَأَنْـــتَ إِلَـــى المُشْـــتَاقِ نَـــارٌ وَجَنَّـــةٌ ... بِبُعْـــدِكَ يَشْـــقَى أَوْ بِقُرْبِـــكَ يَـــنْعَمُ

وَمَـــا زِلْـــتُ أُخْفِـــي الحُـــبَّ عَـــنْ كُـــلِّ عَـــاذِلٍ ... وَتُبْـــدِي دُمُـــوعُ الصَّـــبِّ مَـــا هُـــوَ يَكْـــتُمُ

إِذَا أَنْـــتَ لَـــمْ تَـــرْحَمْ خُضُـــوعِيَ فِـــي الهَـــوَى ... فَمَـــنْ ذَا الَّـــذِي يَحْنُـــو عَلَـــيَّ وَيَـــرْحَمُ

ولا يزال الشّاعر الصّوفيّ يشكو صنيع الشّوق إلى بلوغ الحضرة الإلهيّة ،الّذي يؤجّج بداخله نارا لا يخبو أوارها،برغم تعنيف العذّال الّذين يترصّدون حركاته ويقرّعونه باللّوم، ولايزال مناجيا ملتمسا لطائفها لمغالبة الحنين وآلام البين، ونجد هذه الأبيات "تلتبس بشعر الغزل العذريّ أيّما التباس حتّى أنّه ليخيّل لنا أنّنا نقرأ ابن الملوّح والعبّاس بن الأحنف وجميلا وكثيرا"[1]

يقول الشّشتري[2]:

قَـــدْ كَسَـــانِي لِبَـــاسَ سُـــقْمٍ وَذِلَّـــةٍ ... حُـــبُّ غَيْـــدَاءَ بِالجَمَـــالِ مُدَلَّـــهْ

سَـــــلَبَتْنِي وَغَيَّبَتْنِـــــي عَنِّـــــي ... وَغَـــدَا العَقْـــلُ مِـــنْ هَوَاهَـــا مُوَلَّـــهْ

سَـفَكَتْ فِـي الهَـوَى دَمِـي ثُـمَّ قَالَـتْ ... يَـا طُفَيْلِـي عَشِـقْتَنِي؟ أَنْـتَ أَبْلَـهْ

إِنْ تُـــرِدْ وَصْـــلَنَا فَمَوْتُـــكَ شَـــرْطٌ ... لَا يَنَـــالُ الوِصَـــالَ مَـــنْ فِيـــهِ فَضْـــلَه

[1] نصر (عاطف جودة):الرّمز الشّعريّ عند الصّوفيّة : دار الأندلس-بيروت، ط1، 1978م، ص200.

[2] الشّشتري (أبو الحسن): ديوان أبي الحسن الشّشتري، ضبط وتعليق محمّد العدلوني الإدريسي وسعيد أبو الفيوض، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع-الدّار البيضاء،ط1، 2008،ص 57-58

طَهِّـــرِ العَـــيْنَ بِالمَـــدَامِعِ سَـــكْبًا مِـــنْ شُـــهُودِ السِّـــوَى يُـــزِلْ كُـــلَّ عِلَّـــه

وَانْخَلِـــعْ عَنْـــكَ يَـــا خَلِيـــعَ غَرَامِـــي لَا يَكُـــنْ غَيْـــرُ وَجْهِنَـــا لَـــكَ قِبْلَـــه

وَابْـــذُلِ الـــرُّوحَ فَهْـــيَ فِينَـــا قَلِيـــلٌ راضِـــيًا لا تَقُـــلْ دَمِـــي مَـــنْ أَحَلَّـــه

يعتمد الشّاعر الحوار بين المحبّ والمحبوب، فهو يتحدّث عن حبّه لغيداء فاتنة الجمال، وهذا الحبّ أسقم جسده وسلب روحه، وأصاب عقله وغيّبه عن الوجود، ويجعل شرط الوصل الموت وتطهير العين ،وأن يُصبح المحبّ خاضعا للمحبوب مسلوب الإرادة.، والشّشتري يريد بهذه الأبيات غير هذا المعنى الظّاهر حيث يومئ إلى حالة الفناء الصّوفيّة ،الّتي تستدعي تطهير الجوهر الدّاخليّ بالمجاهدات والرّياضات والتزام الطّريق حتّى ينتهي به إلى الاتّحاد والاتّصال العرفانيّ.، فالحبّ لا يكون لغير اللّه ولا يجوز الانشغال عنه بأيّ شيء سواه، بل لا يجب أن تشهد العين في الكون سواه وهي وحدة الشّهود، فالسّالك حافظ جوارحه أبدا أن يخطر بها غير المحبوب.

2- رمز الخمر:

تفنّن الشّاعر الصّوفيّ في وصف خمره المعنويّة الّتي أقام بينها وبين الخمر الحسّيّة حدودا تكشف عن ماهيتها اللّدنيّة ،فهي علوم ربّانيّة ومعارف قُدسيّة تَرِد على النّفس فتورث الابتهاج، وتُسلم إلى الغيبة والفناء عن الذّات تحت وطأة الانتشاء بمذاق المحبّة الإلهيّة . وهكذا نجد أنّ مفردات كالسّكر والغيبة والذّوق والشّرب والرّيّ قد استقرّت في المعجم الصّوفيّ، لتدلّ على أحوال يمرّ بها السّالك في عروجه نحو المحبوب (الذّات الإلهيّة) ،فهي هجرة من عالم الحسّ إلى عالم التّجلّي الإلهيّ والمحبّة الإلهيّة.

وبهذا تعمّق الصّوفيّة في حقيقة الخمر وأخذوا منها أثرها وتحوّلوا به إلى رمز يعبّرون به عن حالهم، يقول عبد الحكيم حسّان :"والصّوفيّة في كلامهم عن الحبّ يعمدون في رمزهم إلى جانب آخر هو جانب الخمريّات، فهم يتكلّمون عن الحبّ على أنّه شراب"[1]

[1] حسّان (عبد الحكيم): التّصوّف في الشّعر العربيّ الإسلاميّ، ص 323

يقول ابن الجيّاب الغرناطي(ت749هـ)[1]:

هَـــاتِ اسْـــقِنِي صـــرْفًا بِغَيْـــرِ مِـــزَاجِ رَاحِـــي التِـــي هِـــيَ رَاحَتِـــي وَعِلَاجِـــي

إِنْ صُـــبَّ مِنْهَـــا فِـــي الزُجَاجَـــةِ قطْـــرَةٌ شَـــفَّ الزُّجَـــاجُ عَلَـــى السَّـــنَى الوَهَّـــاجِ

فَـــإِذَا الخَلِيـــعُ أَصَـــابَ مِنْهَـــا شَـــرْبَةً حَاجَـــاهُ بِالسِّـــرِّ المَصُـــونِ مُحَـــاجِي

وَإِذَا المُرِيـــدُ أَصَـــابَ مِنْهَـــا جُرْعَـــةً نَاجَـــاهُ بِـــالحَقِّ المُبِـــينِ مُنَـــاجِي

حيث يدعو الشّاعر إلى سُقياه من الخمرة العلويّة الصّافية الّتي لم تعتصر من الكروم، فهي راح معتّقة مُشرِقة مشعشعة ينعكس سناها على الرّوح الكامنة في البدن ،الّذي يجعله الصّوفيّ تارة زجاجة وتارة أخرى إناء وقدحا يطفح بالانتشاء الّذي تورثه مطالعة روعة الجمال الإلهيّ وشهود الأنوار الرّبّانيّة الّتي تتحصّل بعد مجاهدة مضنية في التّخلية والتّحلية[تخلية القلب من غير اللّه وتحليته بذكر الذّات الإلهيّة] ،يقول عاطف جودة نصر: "ولعلّنا نلاحظ هذا التّجريد المثاليّ في وصف الخمر العرفانيّة بالخلوص من كثافة العناصر ،فهي صافية لطيفة نورانيّة بها قامت الأشياء، وإليها اشتاقت أرواح العرفاء حتّى اتّحدت بها"[2]

ويقول ابن الخطيب[3]:

فَاشْـــرَبْ عَلَـــى ذِكْـــرِ الحَبِيـــبِ وَسَـــقِّنِي صَـــهْبَاءَ تُشْـــرِقُ فِـــي الظَّـــلَامِ الـــدَّاجِي

مِـــنْ خَمْـــرَةِ السِّـــرِّ المُقَدَّسَـــةِ الَّتِـــي كَلِفَـــتْ بِطَاسَـــتِهَا يَـــدُ الحَـــلَّاجِ

وَبَحَثْـــتُ عَنْهَـــا خَمْـــرَةً لَمَّـــا تَـــزَلْ سَـــبَبَ النَّجَـــاةِ لِطَالِـــبٍ أَوْ رَاجِ

[1] المقّري: نفح الطيب، ج 5،ص434

[2] نصر عاطف جودة ،الرّمز الشّعريّ عند الصّوفيّة ص 370-371

[3] ابن الخطيب (لسان الدّين) :الدّيوان، تحقيق محمّد مفتاح، دار الثّقافة- بيروت،1989م، ص،348-349.

فابن الخطيب يدعو إلى احتساء السّلافة الصّهباء الّتي فتنت الحلّاج قبله، لأنّها خمرة علويّة تُفضي إلى السّكر الّذي لا يعقبه خُمار، فتسمو بشاربها إلى مقام المحبّة ،الّتي جعلها أساس العلاقة العموديّة الّتي تربط العبد بالمعبود. ونلمس كذلك اعترافا ضمنيّا من الشّشتريّ بتعلّق الخمر العرفانيّة بهذا الشّاعر الرّوحيّ الفذّ، باعتباره أحد أقطاب الصّوفيّة، الّذين أسّسوا طريقة ومدرسة في التّصوّف الفلسفيّ المشرقيّ.

"فكما رأينا ترتبط الخمر بمقام المحبّة الإلهيّة ،وغالبا ما تكون الخمر هي شراب المحبّين العاشقين، وهذا لا يدركه إلّا من ذاق حلاوة الحبّ الإلهيّ ،ووصل إلى حال السّكر ،الّذي يكون فيه مع المحبوب يناجيه ويقتبس من نوره "[1]

ويطالعنا ابن خميس بأبياته في الخمر[2]:

قُـــمْ نَطْـــرُدِ الهَـــمَّ بِمَشْـــمُولَةٍ تُقَصِّـــرُ اللَّيْـــلَ إِذَا اللَّيْـــلُ طَـــال

وَعَاطِهَـــا صَـــفْرَاءَ ذِمِّيَّـــةً تَمْنَعُهَـــا الذِّمَّـــةُ مِـــنْ أَنْ تُنَـــال

عَتَّقَهَـــا فِـــي الـــدُّنِّ خَمَّارُهَـــا وَالبِكْـــرُ لَا تَعْـــرِفُ غَيْـــرَ الحِجَـــال

لَا تَثْقُـــبِ المِصْـــبَاحَ لَا وَاسْـــقِنِي عَلَـــى سَـــنَى البَـــرْقِ وَضَـــوْءِ الهِـــلَال

فَـــالعَيْشُ نَـــوْمٌ وَالـــرَّدَى يَقْظَـــةٌ وَالمَـــرْءُ مَـــا بَيْنَهُمَـــا كَالخَيَـــال

فابن خميس كشاعر صوفيّ يتحدّث عن خمر إلهيّة لا بشريّة، ولهذا هو يختار هذه الخمر ليطرد بها الهمّ، وهي مشمولة تطفئ ظمأه ،وهي تقصّر اللّيل ،فاللّيل حجاب يحول بين الصّوفيّ وبين ما يرنو إليه من معارف وأسرار.

3- رمز الطّبيعة:

احتفى الشّاعر الأندلسيّ بالطّبيعة الخلّابة لبلاده ، واستلهمها في أشعاره ،وأضفى عليها سمات بشريّة تجعلها أنيسا له في وحدته يبثّه آمال نفسه وألامها ،وما يتعاقب عليها من فرح أو أسى، فنجد الشّاعر الصّوفيّ قد توسّل برمز الطّبيعة لتصوير تجربته العرفانيّة ، فالطّبيعة ليست إلّا محلّا لتجلّيات المحبوب، وهو الذّات الإلهيّة.

[1] نصر عاطف جودة :مرجع سابق ص126

[2] المقّري :نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب ج6 ،ص214.

ولعلّ أوّل ما يُطالعنا من مظاهر الطبيعة هو البيئة الحجازيّة الّتي انسلّت إلى لغة الصّوفيّ برغم بعد الشّقّة بين المشرق والمغرب ،بدافع وجدانيّ ظلّ يشدّ الأندلسيّين إلى مرجعيّتهم المشرقيّة، الّتي احتضنت لغة الكتاب العزيز.

وينظم الشّشتري في الإشراق:[1]

إِذَا بُرَيْـــــقُ الحِمَـــــى اسْـــــتَنَارَا أَوْ شِـــــمْتَه فَـــــاخْلَعِ العَـــــذَارَى

وَقُـــــلْ لِمَـــــنْ شَـــــامَهُ فَـــــإِنِّي آنَسْـــــتُ لَمَّـــــا رَأَيْـــــتُ نَـــــارَا

لَمَّـــــا بَـــــدَتْ مِـــــنْ رُبَـــــى المُصَـــــلَّى عَلَّمَـــــتِ الصُّـــــبْحَ اسْـــــفِرَارَا

وَمُـــــدْلِجٍ فِـــــي الـــــدُّجَى أَتَاهَـــــا قَـــــدْ صَـــــيَّرَتْ لَيْلَـــــهُ نَهَـــــارَا

وَأَشْـــــرَقَتْ شَمْسُـــــهُ بِـــــأَوْجِ الكَمَـــــالِ مِـــــنْ ذَاتِـــــهِ فَخَـــــارَا

يُصوّر الشّشتري تنزُّل اللّطائف الإلهيّة بالاستعانة برمز البرق ،الّذي تمنحه صيغة التّصغير "بُريق" رقّة تنسجم مع رقّة مشاعر الشّوق والمحبّة الّتي تجيش بها روح السّالك حينما يشهد بوادر التّجلّي، فالبرق نور يلوح من غمائم تسحّ بالفيوضات الإلهيّة،،وهو تارة أخرى يستثمر القصص القرآنيّ، فيستعير النّار الموسويّة(نار سيّدنا موسى) ،الّتي سُعّرت ليهتدي بها المدلجون،فتتبدّد عنهم حُجُب الظّلمات وتتجلّى لهم أنوار الذّات الإلهيّة ،فتستغرق المحبّ وتوهن قواه، وهو ما يشاكل حالة الصّعق الّتي أصابت سيّدنا موسى بعد تجلّي الحقّ جلّ وعلا لجبل الطّور. قال تعالى: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)"(سورة الأعراف 143)

يقول الدّكتور عاطف جودة نصر:"(...) كذلك يقطع المحبّون في تربّصهم بالتّجلّيات الإلهيّة مسافة نفسهم الّتي بدت لهم حجابا على الحقيقة، وإذ يسرون إلى المحبوب تلفّهم ظلمة الأكوان دليل العدم، وبينما هم آخذون

[1] الششتري (أبو الحسن):الديوان ص45،46

في السّرى يلوح لهم التّجلّي الإلهيّ في النّار رمز الوجود الإلهيّ في سطوعه وإحراقه وهدايته، كما لاح من قبل لموسى"[1]

4- رمز الرّحلة:

يقول الشّشتري:[2]

أَنِـــخِ الرَّكَائِـــبَ فِـــي فِنَـــاءِ الـــدَّارِ وَانْـــزِلْ بِسَـــاحَتِهَا نُـــزُولَ الجَـــارِ

يَـا صَـاحِ رَوِّحْهُـنَّ مِـنَ نَصَـبِ السُّـرَى وَاعْلَـــمْ بِأَنَّـــكَ مَـــا بَقِيـــتَ لِسَـــارِ

وَانْظُـرْ إِلَـى المَغْنَـى الّـذِي يَبْـدُو لَنَـا بِـــالرَّقْمَتَيْنِ عَـــنْ يَمِـــينِ النَّـــارِ

هَاتِيـــكَ دَارُهُـــمُ وَأَمَّـــا نَـــارُهُمُ فَقَـــدْ أُضْـــرِمَتْ بِالقَصْـــدِ لِلْخُطَّـــارِ

يُهْـدَى لَهَـا مَـنْ تَـاهَ فِـي جُـنْحِ الـدُّجَى فَهِـــي الهُـــدَى لِلْهَـــائِمِ المُحْتَـــارِ

حيث يستهلّ الشّاعر قصيدته بالفعل أنخ، وروحهنّ ليدلّ على مدى معاناة الرّكائب وحاجتها للرّاحة بعد مجاهدات مضنية ،في **رحلتها** الشّاقّة الّتي تكتنفها المخاطر، حيث تقطع المفاوز وتجتاز القفار والفيافي وتطوي الشّعاب الشّائكة الّتي تأتي معادلا موضوعيّا لأطوار المجاهدات الّتي يأخذ بها الصّوفيّ نفسه لتنقيتها من شوائب الذّنوب على مراحل هي أحوال ومقامات يتدرّج فيها السّالك لبلوغ الكشف، يقول عاطف جودة نصر: "إذ تُشاكل الرّحلة إلى ديار المحبوب في الخارج بوصفها نمطيّة أسلوبيّة ثابتة، **رحلة أخرى روحيّة**، تُساق فيها النّفوس السّالكة الطّالبة الوجود الواحد الحقّ ،كما تُساق الظّعائن وتُحدى الإبل ،ومثلما تطوي العيس المفاوز المهلكة تطوي نفوس المحبّين في السّفر الرّوحيّ الشّواغل القاطعة والعلائق المانعة"[3]

[1] نصر عاطف جودة :مرجع سابق ص180.

[2] الششتري: الديوان ص 49

[3] نصر عاطف جودة :مرجع سابق ص 180

أمّا السُّرى فهو حجاب الغيب، الذّي يحول دون مكاشفة الذّات الإلهيّة، قبل أن تتوهّج النّار الموسويّة الّتي تهدي السّالك في معراجه اللّيليّ إلى أبواب اللّطائف الإلهيّة .

وهو في سياق آخر يصوّر انقياد النّفس السّالكة، الّتي يحدوها شوقها في سفرها الرّوحيّ في درب المحبّة الإلهيّة، حيث رمز شعراء الصّوفيّة للنّفس الإنسانيّة السّالكة إلى ربّها بالعيس والنّاقة والوجناء ،الّتي يركبها المريدون حتّى توصلهم إلى مراتب المعرفة والولاية.

قال الشّشتري:[1]

لِلعِـــيسِ شَـــوْقٌ قَادَهَـــا نَحْـــوَ السُّـــرَى لَمَّـــا دَعَـــا أَجْفَانَهَـــا دَاعِـــي الكَـــرَى

أَرْخِ الأَزِمَّـــــــةَ وَاتَّبِعْهَـــــــا إِنَّهَـــــــا تَـــدْرِي الحِمَـــى النَّجْـــدِيَّ مَـــعْ مَـــنْ دَرَى

حُـــثَّ الرِّكَائـــبَ فَقَـــدْ بَـــدَتْ سَـــلْعٌ لَنَـــا وَانْـــزِلْ يَمِـــينَ الشِّـــعْبِ مِـــنْ وَادِي القُـــرَى

فَـــإِذَا وَصَـــلْتَ إِلَـــى العَقِيـــقِ فَقُـــلْ لَهُـــمْ قَلْـــبُ المُتَـــيَّمِ فِـــي الخِيَـــامِ قَـــدِ انْبَـــرَى

[1] الشّشتري :الدّيوان ص 15.

3- المديح في الإصطلاح اللغوي :

عرّفه " ابن منظور " في لسان العرب بقوله : " المدْح : نقيض الهِجاء وهو حُسن الثّناء .يقال : مدحتُه مِدحة واحدة و مدَحَه يمدحه مدْحا و مِدحة . هذا قول بعضهم ، و الصحيح أن المدْح المصدر والمِدحة الاسم و الجمع مَدْح ، و هو المديح و الجمع المدائح و الأماديح "[1].

المدح : مدح : مدحا و مدحه : أحسن الثناء عليه ، ضدّ ذمّة .مادحه : مدحه ، تمدّح : افتخر بما ليس عنده . تكلّف أن يمدح و قرظ نفسه و أثنى عليها و الرجل : مدحه ، و – إلى الناس : طلب مدحهم . تمادح القوم : مدح بعضهم بعضا .امتدح : اتّسع .المِدحة ج : مدح : الاسم من مدح مايمدح به – المديح : ج مدائح – والأمدوحة : ج أماديح : ما يمدح به – الممادح: ضد المقابح[2].

والمديح هو فن من فنون الشّعر الغنائيّ يقوم على عاطفة الإعجاب، ويُعبّر عن شعور تجاه فرد من الأفراد أو جماعة أو هيئة- مَلَك على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه. وفي هذا الفن من الشّعر تعداد للمزايا الجميلة، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتّقدير العظيم الذي يُكنّه الشّاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا وعرف بمثل هاته الصفات والشمائل.

أمّا المديح النّبويّ فهو ذلك الشّعر الّذي يهتمّ بمدح الرّسول –صلّى اللّه عليه وسلّم- ،بتعداد صفاته الخُلقيّة والخَلقيّة ،و إظهار الشّوق لرؤيته وزيارة الأماكن المقدّسة ،الّتي اكتنفت بعثته ،مع ذكر معجزاته المادّيّة والمعنويّة ونظم سيرته شعرا ،فهو شعر دينيّ تطبعه نزعة روحانيّة منبثقة من فحوى العقيدة الإسلاميّة.

ويعرّفه الدّكتور زكي مبارك مشيرا إلى تأثّره بموجة التّصوّف: "إنّ المدائح النّبويّة من فنون الشّعر الّتي أذاعها التّصوّف، فهي لون من التّعبير عن العواطف الدّينيّة ،وباب من الأدب الرّفيع ،لأنّها لا تصدر إلّا عن قلوب مُفعَمة بالصّدق والإخلاص"[3]

[1] ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان لعرب، ج16،مادة: م د ح.

[2] المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق- بيروت،ط21، 1960م، ص751

[3] مبارك زكي:المدائح النّبويّة في الأدب العربيّ ،منشورات المكتبة العصريّة –بيروت،ط1،1935م،ص 17.

ويؤكّد هذا التّأثير الصّوفيّ الدّكتور عبّاس جراري بقوله: "وفي اعتقادنا أنّ فنّ المديح وجد صيغته المكتملة حين احتكّ بالتّصوّف، بعد أن ازدهر هذا الأخير وانتشرت مذاهبه وطرقه"[1]

المديح النّبويّ في عهد بني نصر:

حكمت النّكبات الّتي مُنيت بها دولة بني الأحمر على فنّ المديح النّبويّ بالازدهار ،وهي مفارقة تُفسّرها الحاجة الاجتماعيّة لهذا الفنّ الّذي غدا عزاء وسلوى للنّفوس في ظلّ الاضطرابات والفتن الّتي تعصف بالأمّة فحفلت المدوّنة الأندلسيّة في هذا العصر بالمدائح النّبويّة ،الّتي تفيض رقّة وعطفا ،وانتماءً دينيّا. يقول الدّكتور محمّد رضوان الدّاية: "وكانت ظروف الأندلس الجهاديّة المتواصلة تلفت الشّعراء والأدباء إلى الدّيار المقدّسة وإلى المقام النّبويّ وإلى سيرته ،وخصائصه وشمائله استمدادا للصّبر والثّبات والشّجاعة وطلبا لعون اللّه تعالى، يُضاف إلى ذلك بُعد المسافة بين الأندلسيّين وبين الدّيار المقدّسة وصعوبة السّفر ،وقلّة الاستطاعة وهكذا كثُرتِ الدّواعي الّتي حفّزتهم على نظم الشعر في هذا المقصد".[2]

ولعلّ ممّا وطّد دعائم هذا الفنّ ؛ارتباطه بمناسبة دينيّة تحتلّ مكانة جليلة في وجدان الأمّة الإسلاميّة وهي ذكرى **المولد النّبويّ الشّريف**، الّتي كان يجري فيها نظم مدائح نبويّة تلاحَم فيها التّعبير الفنّيّ بالعواطف الدّينيّة.

بدأ الاحتفال بالمولد النّبويّ الشّريف بمبادرة من بني العزفي السّبتيّين، يقول الدكتور محمود علي مكّي: "والّذي يُسجّله التّاريخ أنّ بداية هذا الاحتفال ارتبطت في المغرب بشخصيّة أمير يرجع له الفضل في ذلك ،تماما كما ارتبط المولد النّبويّ في المشرق بشخصيّة الملك المظفّر كوكبوري صاحب إربل، أمّا هذا الأمير فهو أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن الحسين ،الشّهير بابن أبي عزفة اللّخميّ (...)ويرجع احتفاله بالمولد إلى كتاب بدأ بتأليفه بعنوان: "الدّرّ المنظّم في مولد النّبيّ المعظّم"، ثمّ أكمله ابنه وتلميذه أبو القاسم محمّد الّذي حكم سبتة أيضا حتّى وفاته سنة 677هـ" .[3]

---

[1] الجراري عبّاس:الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف-الرّباط،ط2،1978م،ص 143.

[2] الدّاية(محمّد رضوان):في الأدب الأندلسي،ص101.

[3] مكّي (محمود علي):أدبيّات المدائح النّبويّة، الشركة المصريّة العالميّة للنّشر –لونجمان-،ط1، 1991 م، ص 125. دعا صلاح الدّين الأيّوبي إلى إقامة مواسم إسلاميّة في أيّام المواسم النّصرانيّة بأسماء مختلفة، واخترع عددا من تلك المواسم أيضا ،ثمّ جعل للموسم الواحد أسماء مختلفة في الأماكن المختلفة ،وكانت هذه المواسم أو الأعياد الشّعبيّة تحمل معنى دينيّا وغاية سياسيّة حربيّة ،وكانت غاية صلاح الدّين أن يكون من المسلمين جماعات مجتمعة متأهّبة في أيّام اجتماع النّصارى لئلّا يهاجم الإفرنج الصّليبيّون بلدة مسلمة ،والمسلمون فيها غافلون عن ذلك.وانتشرت هذه المواسم في الشّام ومصر والعراق ،ثمّ عاش عدد منها بعد ذلك زمنا طويلا"(عمر فروخ /تاريخ الأدب العربيّ 111/6)

وذلك تعبيرا عن استهجانه لمشاركة المسلمين لجيرانهم المسيحيّين أعيادهم، فندب نفسه لتغيير هذه البدعة .

حيث ارتبطت المدائح النّبويّة في الأندلس بهذه المناسبة الّتي اختلفت آراء الفقهاء بين إباحتها وإنكارها على أنّ مطلق المدح للرّسول-صلّى اللّه عليه وسلّم- يعود إلى صدر الإسلام ،حيث مدائح كعب بن زهير وحسّان بن ثابت ،وعبد اللّه بن رواحة ،وهم الّذين كانوا قدوة المدّاحين فيما بعد.

ويرى الدكتور عبد الحميد الهرامة أنّ نظم المدائح النّبويّة خلال القرن الثّامن الهجريّ عرف ثلاثة أجيال من الشّعراء فقد ولد الرّعيل الأوّل منهم في الرّبع الأخير من القرن السّابع ومن هؤلاء: أبو الحسن بن الجيّاب، وأبو عبد اللّه بن جابر، وأبو سعيد بن لب. أمّا شعراء الرّعيل الثّاني ،فمعظمهم من مواليد الرّبع الأوّل من القرن الثّامن وفيهم: ابن الخطيب، وابن الحاج النّميري وأبو القاسم بن رضوان، وتأخّرت ولادة الجيل الثّالث إلى الرّبع الثّاني من القرن الثّامن فما بعده، ومن هؤلاء: عبد اللّه بن زمرك وأبو القاسم البرجي ،وأبو القاسم التّجيبي [1].

- بناء قصيدة المديح النبوي ومضامينها في دولة بني نصر:

– المقدمة:

تتوسّل مقدّمة قصيدة المديح النّبويّ عند بني الأحمر بالنّسيب الرّمزيّ ،الّذي يتّخذه الشّاعر مَطيّة لِبثّ أشواقه العارمة إلى مهبط الوحي وديار الحبيب المصطفى، في لوعة تضطرم بين جوانحه، جريا على مذهب الصّوفيّة، وهذا ما قرّره ابن عربي بقوله: (و جُعِلَتِ العبارة عن ذلك بلسان الغزل أو التّشبيب، لتعشُّق النّفوس بهذه العبارات فتتوفّر الدّواعي على الإصغاء إليها ، و هو لسان كل أديب روحاني لطيف)[2].

وكثيرا ما يكون التّغزّل أو النّسيب خاضعا لشروط النّقّاد في هذا المجال ، فقال الحموي : (إنّ الغزل الذي يُصدّر به المديح يتعيّن على الناظم أن يحتشم فيه و يتأدّب ،و يتضاءل و يتشبّب ، مطربا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق، والعذيب ، والغوير ، ولعلع ، و أكناف حاجر) [3]، لذلك جاءت هذه المعالم كثيرة في مقدمات مدائحهم وميلادياتهم.

[1] يُنظر الهرامة عبد الحميد عبد اللّه: القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري ،ص330

[2] ابن عربي(محي الدّين): ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق، المطبعة الأندلسيّة- بيروت ،1312هـ، ص5.

[3] الحموي (ابن حجّة): خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق كوكب دياب، دار صادر- بيروت،ط2، 2002م ،ج1، ص40)

يقول عبد العزيز الغرناطي(بن يشت) [1]:

القَلْـــبُ يَعْشَـــقُ وَالمَـــدَامِعُ تَنْطِـــقُ بَـــرَحَ الخَفَـــاءِ فَكُـــلُّ عُضْـــوٍ مَنْطِـــقُ

إِنْ كُنْـتُ أَكْـتُمُ مَـا أُكِـنُّ مِـنَ الجَـوَى فَشُـحُوبُ لَـوْنِيَ فِـي الغَـرَامِ مُصَـدِّقُ

وَتَـــذَلُّلِي عِنْـــدَ اللِقَـــا وتَمَلُّقِـــي إِنَّ المُحِـــبَّ إِذَا دَنَـــا يَتَمَلَّـــقُ

إذ لا يجد الشّاعر سبيلا لإخفاء لواعج نفسه التّوّاقة إلى لقاء الحبيب المصطفى، لأنّ ما أصابه من هُزال وامتقاع لون قد أفصح عن حاله ،حتّى غدت أوصاله شاهدة على وجده ،واجتهاده في إبداء الودّ أمارة جليّة على مكنون نفسه.

أمّا "أبو عبد اللّه بن الصّائغ" فيختزن في محاجر عينيه دمعا هتّانا ،ينسكب كلّما هبّ نسيم الصّبا حاملا شذى خير البريّة: [2]

بُعْـــدُ المَـــزَارِ وَلَوْعَـــةُ الأَشْـــوَاقِ حَكَمَـــا بِفَـــيْضِ مَـــدَامِعِ الآمَـــاق

وَخُفُـــوقُ نَجْـــديّ النَّسِـــيمِ إِذَا سَـــرَى أَذْكَـــى لَهِيـــبَ فُـــؤَادِيَ الخَفَّـــاق

أَمُعَلِّلِـــي أَنَّ التَّوَاصُـــلَ فِـــي غَـــدٍ مَـــنْ ذَا الّـــذِي بِغَـــدٍ فَـــدَيْتُكَ بَـــاق

ثمّ ينتقل الشّاعر من هذا الاستهلال المعتاد إلى موضوعات مختلفة، منها **وصف الرّكبان** وما أثاروه بسفرهم إلى البقاع المقدّسة من لواعج الشّوق في نفسه، وما حرّكوه من حنينه إلى مُرافقتهم، وما أقعده عن تلك الغاية من عقبات ،كإعاقة الذّنوب واتّباع الهوى ،وفتور الهمّة وبُعد الشّقّة:

يقول عبد الحقّ بن عطيّة[3]:

---

[1] النّبهاني (يوسف بن إسماعيل): المجموعة النّبهانيّة في المدائح النّبويّة، دار الكتب العلميّة- بيروت، ج2، ص449.

[2] ابن الخطيب:الكتيبة الكامنة ص 88.

[3] ابن الخطيب :الإحاطة في أخبار غرناطة:561/3.

أُحَـــدّثُ نَفْسِـــي أَنْ أَرَى الرَّكْـــبَ سَـــائِرًا وَذَنْبِـــي يُقْصِـــينِي بِأَقْصَـــى المَغَـــارِبِ

فَـــلَا فُـــزْتُ مِـــنْ نَيْـــلِ الأَمَـــانِي بِطَائِـــلٍ وَلَا قُمْـــتُ مِـــنْ حَـــقّ الحَبِيـــبِ بِوَاجِـــبِ

وَلِكِـــنْ ذُنُـــوبِي أَثْقَلَتْنِـــي فَهَـــا أَنَـــا مِـــنْ الوَجْـــدِ قَـــدْ ضَـــاعَتْ عَلَـــيَّ مَـــذَاهِبِي

أمّا أبو جيّاب فيصف حال الظاعنين ،القاصدين جواره، متجشّمين عناء السّفر في سبيل التّملّي برؤية ربوعه الطّاهرة[1]:

شُـــعْثٌ رُؤُوسُـــهُمُ يُـــبْسٌ شِـــفَاهُهُمُ خَـــوْصٌ عُيُـــونُهُمُ غُـــرْبٌ مَهَازِيـــلُ

حتَّـــى إِذَا لَاحَ مِـــنْ بَيْـــتِ الإِلَـــهِ لَهُـــمْ نُـــورٌ إِذَا هُـــمْ عَلَـــى الغَبَـــرا أَرَاحِيـــلُ

أمّا المراكشي فيضع بين يدي من أراد التّكفير عن ذنبه وصفة مُثلى وترياقا نبويّا، يُزيح ما أثقل كاهل الظّاعن من رزايا[2]:

شُـــدُّوا المَطِـــيَّ إِلَـــى الرَّسُـــولِ وَعَرِّجُـــوا وَإِلَيْـــهِ مَـــنْهَجُكُمْ وَنِعْـــمَ المَـــنْهَجُ

يَـــا مُرْتَجَـــى حَـــطِ الـــذُّنُوبِ بِـــزَوْرِه اقـــرَعْ فَمَـــا بَـــابُ الزِيَـــارةِ مـــرتَج

ويقول ابن الخطيب[3]:

وَرُكَّـــابٍ سَـــرَوا وَقَـــدْ شَـــمَلَ اللَّـــيْ لُ بِمَسْـــحِ الـــدُّجَى جَمِيْـــعَ النَّـــوَاحِي

وَكَـــأَنَّ الظَّـــلاَمَ عَسْـــكَرُ زِنْـــجٍ وَنُجُـــومُ الـــدُّجَى نُصُـــولُ الرِّمَـــاحِ

[1] ابن الخطيب :الإحاطة في أخبار غرناطة:33/3.

[2] ابن الخطيب : نفسه، 47/2

[3] ابن الخطيب :الدّيوان، ص 390-391.

حَمَلَـــتْ مِـــنْهُم ظُهُـــورُ المَطَايَـــا أَيَّ جَـــدٍّ بحْـــتٍ وَعَـــزْم صَـــرَاحِ

خَلَّفُـــونِي مِـــنْ بَعْـــدِهِمْ نَـــاكِسَ الطَّـــرْ فِ ثَقِيـــلَ الخُطَـــى مَهِيضًـــا جَنَـــاحِي

وَطَـــوَوا طَـــوْعَ لَاعِـــجِ الشَّـــوْقِ وَالـــوَجْ دِ إِلَـــى الأَبْطَحِـــيّ غَيْـــر البِطَـــاحِ

مُصْـــطَفَى اللَّـــهِ مِـــنْ ظُهُـــورِ النَّبِيِّـــي نَ هُـــدَاةِ الأَنَـــامِ سُـــبُلَ الفَـــلَاحِ

أمّا شوق ابن زمرك فيظلّ قائما لزيارة قبر النّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلّم- وبثّه مدائحه[1]:

يَـا لَيْـتَ شِـعْرِي هَـلْ أَرَى أَطْـوِي إِلَـى قَبْـــرِ الرَّسُـــولِ صَـــحَائِفَ البَيْـــدَاءِ

فَتَطِيـــبَ فِـــي تِلْـــكَ الرُّبُـــوعِ مَـــدَائِحِي وَيَطُـــولَ فِـــي ذَاكَ المَقَـــامِ ثَـــوَائِي

غير أنّ ابن حمدون الحميري يخشى أفول نجمه قبل أن ينعم باللّقيا[2].

فَبِالقَلْـــبِ مِـــنْ نَـــارِ التَّشَـــوُّقِ حُرْقَـــةٌ وَبِـــالعَيْنِ مِـــنْ فَـــيْضِ الـــدُّمُوعِ عُبَـــابُ

وَلَا بَلَـــغَ السُّـــلُوكُ قَصْـــدًا وَلَا مِنًـــى وَلَا حُـــطَّ عَـــنْ وَجْـــهِ المُـــرَادِ نِقَـــابُ

وَأَخْشَـــى سِـــهَامَ المَـــوْتِ تَفْجَـــأُ غَفْلَـــةً وَمَـــا سَـــارَ بِـــي نَحْـــوَ الرَّسُـــولِ رِكَـــابُ

وَقَلْبِـــيَ مَعْمُـــورٌ بِحُـــبِ مُحَمَّـــدٍ فَمَـــالِي فِـــي غَيْـــرِ الحِجَـــازِ طِـــلَابُ

وها هو عليّ بن محمّد الأنصاريّ يستعين بمعجم اعتاد الصّوفيّة استخدامه في أشعارهم ،ليعبّر عن مواجده[3]:

[1] ابن زمرك:ديوان ابن زمرك الأندلسيّ، ص 15.

[2] النبهاني: المجموعة النّبهانيّة،ج1 ،ص434.

[3] المراكشي(محمّد بن محمّد بن عبد الملك):الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، تحقيق إحسان عبّاس، محمّد بن شريفة، بشار عواد معروف،دار الغرب الإسلاميّ-تونس،ط1، 2012م،ج5 ص294.

يَـــا حُـــدَاةَ العِـــيسِ رِفْقًـــا إِنَّهَـــا شَـــكَتِ الجُهْـــدَ وَبُعْـــدَ المُرْتَمَـــى

طَاوِيَـــاتٍ لَـــمْ يَـــدَعْ مِنْهَـــا السُّـــرَى وَدَخِيـــلُ الشَّـــوْقِ إِلَّا الأَعْظُمَـــا

جَنِّبُوهَـــا مَـــوْرِدَ المَـــاءِ فَقَـــدْ حَرَّمَتْـــهُ أَوْ تَـــزُورَ الحَرَمَـــا

فحادي العيس في اصطلاح الصّوفيّة هو الشّوق ،الّذي يحدو الهمم السّالكة في طريقها الرّوحيّ.

وللأماكن الحجازيّة حيز فسيح في قصائد المديح النّبويّ، فقد شهدت مولد الرّسول –صلّى اللّه عليه وسلّم- ونشأته واحتوت مراحل حياته في مكّة والمدينة، وهي لذلك تتبوّأ مكانة سنيّة في قلب كلّ مسلم.

يقول ابن الخطيب[1]:

كَـــأَنِي بِقَـــوْمِي حِـــينَ حَلُّـــوا خِلاَلَهَـــا وَأَعْيُـــــنُهُم إِذْذَاكَ أَعْيُـــــنُهُمْ تَهْمِـــــي

يُكِبُّـــونَ لِلأَذْقَـــانِ فِـــي عَرَصَـــاتِهَا سَـــلَامًا وَتَقْبِـــيلًا عَلَـــى ذَلِـــكَ الرَّسْـــمِ

فَيُعْفَـــى عَـــنْ الأَوزْارِ فِـــي ذَلِـــكَ الحِمَـــى وَتُغْتَفَـــرُ الآثَـــامُ فِـــي ذَلِـــكَ اللَّـــثْمِ.

فالشّاعر يصوّر حال الحجيج عند بلوغ البقاع المقدّسة، حيث اهتزّت نفوسهم لمرآها ،فأقبلوا يقبّلون زواياها، مُلتمسين بذلك الشّفاعة ، وما ذلك إلّا لصلتها بالنّبيّ الكريم –صلّى اللّه عليه وسلّم-.

ثمّ يعود ويمنّي النّفس ببلوغها، فيسري برد السّلام إلى روحه الظّمأى إلى مرآها[2]:

أَلَا لَيْـــتَ شِـــعْرِي هَـــلْ أَرَانِـــي نَاهِـــدًا أَقُـــوُدُ الِقـــلاَصَ البُـــدْنَ وَالضَّـــامِرِ النّهْـــدَا

إِلَـــى أَنْ أَحُـــطَّ الرّحـــل فِـــي تُرْبِـــكَ الَّـــذِي تَضَـــوَّعَ نَـــدًّا مَـــا رَأَيْـــتُ لَـــهُ نَـــدَّا

[1] ابن الخطيب: الدّيوان ،ص 576

[2] ابن الخطيب(لسان الدّين):نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب، مُراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النّشر المغربيّة- الدّار البيضاء،ج2،ص276.

وأَطْفِـــئَ فِـــي تِلْـــكَ المَـــوَارِدِ غُلَّتِـــي وَأَحْســـبَ قُرْبًـــا مُهْجَـــةً شَـــكَتِ البُعْـــدَا

ويقول ابن زمرك: [1]

سَـــقَاهَا الحَيَـــا مِـــنَ أَرْبُـــعٍ وَمَعَاهِـــدٍ فَلِلّـــه مَـــا أَذْكَـــى وَأَزْكَـــىَ وَأَكْرَمَـــا

بَطِيـــبِ رَسُـــولِ اللَّـــه طَابَـــتْ رُبُوعُهَـــا فَسَـــلْ إِنْ أَرَدْتَ الرَّكْـــبَ عَمَّـــا تَنَسَّـــماَ

وقد كانت زيارة قبر النّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلّم– هي الأخرى أمنية تساور الرّوح.

يقول ابن قطبة الدّوسي: [2]

دَعْنِـــي أُعَلِّـــلْ بِالتَّصَـــبُّرِ مُهْجَتِـــي كَيْمَـــا أُوَافِـــقَ رَأْيَهَـــا وَهَوَاهَـــا

حتَّـــى أَحُـــثَّ إِلَـــى البَقِيـــعِ رِكَـــائِبِي وَأَبُـــثَّ فِـــي عَرَصَـــاتِهَا شَـــكْوَاهَا

وَأُجِيـــلَ فِـــي تِلْـــكَ المَعَـــالِمِ نَظْـــرَةً تَجْلُـــو عَـــنِ الـــنَّفْسِ الغَـــدَاةَ صَـــدَاهَا

وَأَحُـــطَّ رِحْلِـــي عِنْـــدَ قَبْـــرِ مُحَمَّـــد خَيْـــرِ البَرِيَّـــةِ كَـــيْ أُقِـــيمَ صـــفَاهَا

أمّا فرج بن لبّ الغرناطي فيعاوده الشّوق لزيارتها،كلّما تداعت إلى ذهنه ذكريات معاينته لتلك المعالم، الّتي شرف ثراها بوطأة النّعال المحمّديّة الطّاهرة: [3]

إِذَا القَلْـــبُ ثَـــارَ أَثَـــارَ اذّكَـــارَا لِقَلْبِـــي فَـــأَذْكَى عَلَيْـــهِ أُوَارَا

أَحِـــنُّ اشْـــتياقًا لَـــرِيحٍ سَـــرَتْ وَأُبْـــدِي هيَامًـــا لِبَـــرْقٍ أَنَـــارَا

[1] ابن الخطيب(لسان الدّين): نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب،ج3 ص 306

[2] نفسه، ص 312

[3] المقّري:نفح الطّيب، ص 510.

حنِينًـــــا وَشَـــــوْقًا إِلَـــــى مَعْلَـــــمٍ حَـــوَى شَـــرَفًا خَالِـــدًا لَا يُجَـــارَى

أمّا القاضي البلويّ فقد أفصح تكبيره وتهليله عن مقدار الغبطة، التي انتابت روحه، عندما لاحت له عن كثب: [1]

اللَّـــــهُ أَكْبَـــــرُ حَبَّـــــذا إِكْبَـــــارُهُ هَـــــذَا الشَّـــــفِيعُ لَنَـــــا وَهَـــــذِي دَارُهُ

هَـــــذَا المُصَـــــلَّى وَالبَقِيـــــعُ وَهَاهُنَـــــا رُبْـــــعُ الحَبِيـــــبِ وَهَـــــذِه آثَـــــارُهُ

هَـــــذِي مَنَازِلُـــــهُ المُقَدَّسَـــــةُ الّتِـــــي جِبْرِيـــــلُ رُدِّدَ بَيْنَهَـــــا تكْـــــرَارُهُ

هَـــذِي مَـــوَاطِئُ خَيْـــرِ مَـــنْ وَطـــأَ الثّـــرَى وَعَـــلَا عَلَـــى السّـــبْعِ العُـــلاَ اسِـــتقَرُارُه

هَـــذِي مَوَاضُـــع مَهْـــبطِ الَـــوحْيِ الَّـــذِي تُشْـــفِي القُلُـــوبَ مِـــنَ العَمَـــى أَسْـــرَارُهُ

ويعلّق عبد الحميد عبد اللّه الهرامة على هذه الأبيات بقوله: "إنّ هذا التّكبير والتّكرار لاسم الإشارة لَيَعْكِسُ حالة الانبهار الّتي يحسّ بها المؤمن في لحظات مواجهته الأولى للأماكن المقدّسة، حيث يربط في ذلك بين الصّورة المشاهَدة وكلّ ما ارتسم في ذهنه من صور، عبر القراءات والخطب و الدّروس الّتي تلقّاها عن هذه المشاهد منذ نعومة أظافره، ولذا فلا غرو أن يكون اللّقاء أعمق من مجرّد المصافحة والإعجاب ،الّذي يحسّ به الإنسان وهو يشاهد منظرا طبيعيّا جميلا"[2]

الشّمائل المحمّديّة: وهي الموضوع المحوريّ في قصائد المديح ،وقد مُدح عليه الصّلاة والسّلام بخُلُقه وأصله وتزكية اللّه سبحانه وتعالى له في القرآن الكريم، وإمامته للأنبياء عليهم السّلام.

[1] هذه القصيدة أوردها النّبهاني في مجموعته ج2 ص 206 ونسبها إلى لسان الدّين بن الخطيب والصّحيح نسبتها للقاضي البلوي كما يذكر لسان الدّين نفسه في كتابه الكتيبة الكامنة ص 135

[2] الهرامة(عبد الحميد عبد اللّه):القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري ص 360.

يقول عبد الحقّ بن عطيّة: [1]

رَؤُوفٌ رَحِـــيمٌ خَصَّـــهُ اللَّـــهُ بِاسْـــمِهِ وَأَعْظَـــمَ لاَحَ فِـــي الثَّنَـــاءِ وَعَاقِـــبِ

وَشَـــرَّفَهُ أَصْـــلًا وَفَرْعًـــا وَمَحْتِـــدًا يُـــزَاحِمُ آفَـــاقَ السُّـــرَى بِالمَنَاكِـــبِ

سِـــرَاجُ الهُـــدَى ذُو الجَـــاهِ وَالمَجْـــدِ وَالعُـــلاَ وَخَيْـــرُ الـــوَرَى الهَـــادِي الكَـــرِيمُ المناســـب

حَلِـــيمٌ جَمِيـــلُ الخَلْـــقِ وَالخُلْـــقِ مَالَـــهُ نَظِيـــرٌ وَصْـــفُ اللَّـــهِ حُجّـــةُ غَالِـــبِ

في حين نجد شعراء آخرين أصابتهم السّكتة القلميّة ،أمام العجز عن حصر شمائله الرّفيعة –صلّى اللّه عليه وسلّم

قال إسماعيل بن الأحمر[2]**:**

بِمَـــدْحِكَ يَـــا خَيْـــرَ الـــوَرَى الـــوَحْيُ قَـــدْ أَتَـــى فَأَشْـــجَارُ ذَاكَ المَـــدْحِ تُجْنَـــى ثِمَارُهَـــا

إِذَا نَطَـــقَ القُـــرْآنُ مِنْـــكَ بِمدْحَـــةٍ فَأَمْـــدَاحُنَا بِـــالعَجْزِ سِـــيقَ اضْـــطِرَارُهَا

فقد عبّر الشّاعر عن مدى عجز أداته الفنّيّة عن الوصول إلى مستوى ما ينبغي أن يمدح الرّسول–صلّى اللّه عليه وسلّم– به مقايسة مع ما أنزل اللّه تعالى من مديح لنبيّه.

قال عزيز بن يشت[3]**:**

يَـــا سَـــائِلِي عَـــنْ كُنْـــهِ بَعْـــضِ صِـــفَاتِهِ كَـــلَّ البَيَـــانُ وَكَـــلَّ عَنْـــهُ المَنْطِـــقُ

[1] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة562/3

[2] ابن الأحمر(أبو الوليد إسماعيل): نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزّمان، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، دارالفكر–سوريا، 1999م،ص 210.

[3] ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة ،ص 295.

قال ابن الخطيب[1]:

رَسُــولٌ أَتَــى حُكْــمُ الكِتَــابِ بِمَدْحِــهِ وَأَثْنَــى عَلَيْــهِ اللَّــهُ بِالصِّــدْقِ وَالحِلْــمِ

قَرِيــعٌ صَــمِيمُ المَجْــدِ فِــي آَلِ هَاشِــمٍ أُولِــي القَسَــمَاتِ الغُــرِ وَالأُنُــفِ الشُّــمِّ

ويقول أبو القاسم محمّد بن أحمد بن جزيّ:[2]

أَرُوحُ اِمْتِــــدَاحَ المُصْــــطَفَى فَيَرُدُّنِــــي قُصُــــورِي عَــــنْ إِدْرَاكِ تِلــــكَ المَنَاقِــــبِ

وَمَــن لِــي بِحَصْــرِ البَحْــرِ وَالبَحْــرُ زَاخِــرٌ وَمَــنْ لِــي بِإِحْصَــاءِ الحَصَــى وَالكَوَاكِــبِ

وَلَــــو أَنَّ كُــــلَّ العَــــالَمِينَ تَسَــــابَقُوا إِلَــى مَدْحِــهِ لَــمْ يَبْلُغُــوا بَعْــضَ وَاجِــبِ

فَأَمْسَــــكْتُ عَنْــــهُ هَيْبَــــةً وَتَأَدُّبــــاً وَعَجْــــزًا وَإِعْظَامًــــا لاَ رَفْــــعَ جَانِــــبِ

– سيرة النّبيّ ومعجزاته:

وثمّة محور ثان تحرّك عليه الشّعراء الغرناطيون في مدائحهم النّبويّة، وحاز جلّ اهتمامهم، وأضحى جوهر قصائدهم، تمثّل في تناول جوانب الثّراء في شخصيّة النّبي صلى الله عليه وسلم، وليدا مرضَعا، ومبعوثا هاديا ورسولا مجاهدا، فكثيرا ما تغنّى الشّعراء الغرناطيون بمولده صلى الله عليه وسلم، وما صاحب مولده من بشائر حتّى بدا وكأنّ الكون كلّه يحتفل بهذا المولد.

وقد وجدنا أنّ أكثر القصائد تحتوي على الحديث عن المعجزات الّتي اشتهرت في كتب السيرة، كحنين الجذع، وشق البدر، ونبع الماء من بين أصابع الرّسول صلى الله عليه وسلم، وسلام الأحجار، وتكليم الظّبي...

[1] ابن الخطيب :الديوان ،ص 576.

[2] المقّري: نفح الطّيب ،ج8 ،ص30.

حيث يعرض أبو القاسم محمّد بن حبيب التّجيبي في قالب سرديّ معجزة تسبيح الحصى، وحنين الجذع ،وحديث الضّبّ والغزالة[1]:

وَاْلـثمْ بِطَيْبَـةَ قَبْـرَ مَـنْ حُبِسَـتْ لَـهُ شَـمْسُ النَّهَـارِ وُخُـصَّ بِـالقُرْآنِ

وَجَـرَتْ بِأَنْمُلِـهَ حَيَـاةٌ فَـارْتَوَتْ مِنْهَـا عَسَـاكِرُ جَيْشِـهِ الظَّمْـآنِ

وَالجِـذْعُ حَـنَّ لَـهُ وَسَـبَّحَتِ الحَصَـى فِـي كَفِّـه العُظْمَـى بِغَيْـرِ لِسَـانِ

وَالضَّـبُّ كَلَّمَـهُ كَلاَمًـا بَيِّنًـا وَالبَـدْرُ شُـقَّ وَلَاحَ أَي عَيَـانِ

ومعجزة الإسراء و المعراج من بين المعجزات الكثيرة التي شكّلت نبعا ثرا، استمد منه الشعراء الغرناطيون عناصر أثْرت مدائحهم النبوية، فراحوا يصفون إسراءه—صلّى اللّه عليه وسلم- ليلا من الحرم المكيّ إلى بيت المقدس، ثم معراجه في السّماوات السبع، حتى أضحى (قاب قوسين أو أدنى)،حيث أمَّ الأنبياء،تميزا وتقدُّما.

ونجد ابن الخطيب يقتبس التّعبير القرآنيّ ليتناول هذه المعجزة ،الّتي أسالت كثيرا من مداد شعراء بني الأحمر:[2]

سَـرَى وَجُـنْحُ ظَـلاَمِ اللَّيْـلِ مُنْسَـدِلُ وَالـنَّجْمُ لَا يَهْتَـدِي فِـي الأُفُـقِ سَـارِبُهُ

يَسْـمُو لِكُـلّ سَـمَاءٍ مِنْـهُ مُنْفَـرِدٌ عَـنْ الأَنَـامِ وَجِبْرَائِيـلُ صَـاحِبُهُ

لمنْتَهَـى وَقَـفَ الـرُّوحُ الأُمِـينُ بِـهِ وَامْتَـازَ قُرْبًـا فَـلَا خَلْـقٌ يُقَارِبُـهُ

لِقَـابِ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَـى فَمَـا عَلِمَـتْ نَفْـسٌ بِمِقْـدَارِ مَـا أَوْلَاهُ وَاهِبُـهُ

أَرَاهُ أَسْـرَارَ مَـا قَـدْ كَـانَ أَوْدَعَـهُ فِـي الخَلْـقِ وَالأَمْـرُ بَادِيـه وَغَائِبُـهُ

[1] ابن الخطيب:الكتيبة الكامنة،ص303.

[2] ابن الخطيب :الديوان، ص 171.

كما عدّد ابن جابر أيضا معجزات الرّسول –صلّى اللّه عليه وسلّم– الكثيرة مثل: كلام البعير معه وتسبيح الحصى في يديه ،وحنين الجذع إليه، وانشقاق البدر ،وتظليل الغمام ،واخضرار الدّوح بعد جفافه ،وتكليم الميت وقيامه ،وشهادة الضّبّ على نبوّته ،وطاعة الغزالة له تعدادا قريبا من القصّ[1]:

ذُو المُعْجِـــزَاتِ المُعْجِـــزَاتِ لِكُـــلّ مَـــنْ فِـــي صَـــدْرِهِ دَغْـــلٌ ثَـــوَى وَتَجَلّجَـــا

نَطَـــقَ البَعِيـــرُ لَـــهُ وَسَـــبَّحَتِ الحَصَـــى وَالجِـــذْعُ حَـــنَّ لَـــهُ بِصَـــوْتٍ قَـــدْ شَـــجَا

وَالشَّـــمْسُ بَعَـــدَ غُرُوبِهَـــا رُدَّتْ لَـــهُ وَالبَـــدْرُ بَـــيْنَ يَدَيْـــهِ شُـــقَّ وَأَفْرَجَـــا

وَإِذَا مَشَـــى كَـــانَ الغَمَـــامُ يُظِلُّـــهُ كَرَمًـــا إِذَا لَهَـــب الهَجِيـــرِ تَوَهَّجـــاً

وَالـــدَّوْحُ أَوْرَقَ بَعْـــدَ يُـــبْسٍ عِنْـــدَمَا وَافَـــى وَمَـــدّ عَلَيْـــهِ ظِـــلّاً سَجْسَـــجَا

وَالضّـــبُّ قَـــالَ شَـــهِدْتُ أَنَّـــكَ مُرْسَـــلٌ لِلْعَـــالَمِينَ فَمَـــنْ أَجَـــابَ فَقَـــدْ نَجَـــا

هَـــذِي الغَزَالَـــةُ إِذْ أَطَاعَـــتْ أَمْـــرَهُ وَجَـــدَتْ سَـــبِيلاً لِلنَّجَـــاةِ وَمَخْرَجًـــا.

يقول عبد العزيز بن محمّد القشتالي[2]:

لَـــهُ مُعْجِـــزَاتٌ أَخْرَسَـــتْ كُـــلَّ جَاحِـــدِ وَسَـــلَّتْ عَلَـــى المُرْتَـــابِ صَـــارِمَ بُرْهَـــانِ

لَقَـــدْ انْشَـــقَّ قُـــرْصُ البَـــدْرِ شَـــقَّيْنِ وَارْتَـــوَى بِمَـــا هَمَـــى مِـــنْ كَفِـــهِ كُـــلُّ ظَمْـــآنِ

وَإِنَّ كِتَـــابَ اللَّـــهِ أَعْظَـــمُ آيَـــةٍ بِهَـــا افْتَضَـــحَ المُرْتَـــابُ وَابْتَـــأَسَ الشَّـــانِي

[1] النّبهاني:المجموعة النبهانيّة ، ص 575

[2] المقّري:نفح الطّيب،(329/6)

– الشفاعة والتوسل:

ثمّة عنصر آخر تنهض عليه المدائح النبوية، يتمثل في التّشفُّع والتّوسُّل بالنّبيّ –صلى الله عليه وسلم– وهذا العنصر يأتي تطوُّرا طبيعيا لحديث الشعراء عن جوانب الثراء في شخصه الكريم. وقد تباينت مواقف الشعراء الغرناطيين في هذا الإطار، فمنهم من تشفّع لقضاء حاجات أخروية، ومنهم من تشفّع من أجل أمور دنيوية، وفي كلّ الحالات يقترن طلب الشفاعة بالاعتراف بالتّقصير وكثرة الذنوب.

قال ابن قطبة الطوسي: [1]

يَـــا سَـــيّدَ الثَّقَلَـــيْنِ مَـــا لِـــي مَطْمَـــعٌ ... فِـــي غَيْـــرِ فَضْـــلِكَ فَلْتُصَـــدِّقْ مَطْمَعِـــي

وَاسْـــأَلْ إِلَهَـــكَ لِـــي بِحَقّـــكَ رَحْمَـــةً ... وَاشْـــفَعْ تَشَـــفَّعْ يَـــا أَجَـــلَّ مُشْـــفّعِ

حَاشَـــا وَكَـــلَّا أَنْ تَضِـــيْعَ وَسَـــائِلِي ... وَيَضِـــيعَ فِـــي آلِ الرَّسُـــولِ تَشَـــيُّعِي

وغالبا ما يذيّل شعراء المديح النّبويّ مدائحهم بالصّلاة والسّلام على الحبيب المصطفى:

يقول ابن جنان الأنصاريّ: [2]

صَـــلُّوا عَلَـــى خَيْـــرِ البَرِيَّـــةِ خُيّمـــا ... وَأَجَـــلِّ مَـــنْ حَـــازَ الفَخَـــارَ صَـــمِيما

صَـــلُّوا عَلَـــى نُـــورٍ تَجَلَّـــى صُـــبْحُهُ ... فَجَـــلاَ ظَلاَمـــاً لِلظَّـــلاَمِ بَهِيمَـــا

صَـــلُّوا عَلَـــى هَـــذَا النَّبِـــيّ فَإِنَّـــهُ ... مَـــنْ لَـــمْ يَـــزَلْ بِـــالمُؤْمِنِينَ رَحِيمَـــا

يَـــا أَيُّهَـــا الرَّاجُـــونَ مِنْـــه شَـــفَاعَةً ... صَـــلُّوا عَلَيـــهِ وَسَـــلِمُوا تَسْـــلِيمَا

[1] ابن الخطيب: نُفاضة الجراب ،ج3 ص 317.

[2] المقّري:نفح الطيب،ج10،ص 294-295.

وهكذا فقد شكّلت أشعار المدائح النبوية ظاهرة استهوت عامّة الناس وخاصّتهم، و كانت مناسبة المولد النبوي ميدانا و حافزا للاهتمام بها.

الفصل الثاني:

أثر الشّعر الديني في

شعر "عبد الكريم القيسي"

تجدر الإشارة إلى أنّ عبد الكريم القيسي قد تناول الموضوع الدّينيّ في أشعاره مُقتصرا على غرضي الزّهد والمديح النّبويّ، دون التّطرّق إلى التّصوّف، الّذي عرف على عصره انتشارا واسعا وُجِدت أصداؤه في قصائد مُعاصريه من الشّعراء أمثال: ابن خاتمة، ابن الخطيب، ابن زمرك، البلفيقي وغيرهم

وقد يُعزى ذلك–حسب تقديري– إلى ثقافته الفقهيّة، الّتي وقَفَت مناهِضة للتّصوّف ،الّذي استرفد من دوائر الفكر الأجنبيّة والنّظريّات الفلسفيّة ما جعله غريبا عن المناخ الإسلاميّ.

1- التّناصّ الدّينيّ في زهديّات عبد الكريم القيسي:

كثيرا ما يستوعب النّصّ الأدبيّ نصوصا أخرى، يستدعيها الكاتب من مخزونه الثّقافيّ، نتيجة احتكاك الأنا بنتاج الآخر، فالتّناصّ في أبسط معانيه هو عمليّة توليد نصّ من رحم نصوص أخرى تكتنزها ذاكرة المبدع، وهذا ما أكّدته النّاقدة جوليا كريستيفا ، حيث تقول في كتابها علم النّصّ: "إنّ كلّ نصّ هو تشرُّب وتحويل لنصوص أدبيّة أخرى"[1]

ومن خلال دراستي لشعر الزّهد عند "عبد الكريم القيسي" فقد تبيّن لي أنّ توظيف النّصّ الدّينيّ، باللّفظ أو المعنى ،من أكثر أشكال التّناصّ تردّدا وحضورا لديه، باعتبار البيان الإلهيّ مَعينا ثرّا للفصاحة والبيان ومصدرا من مصادر الإلهام الشّعريّ يستمدّ منه الشّاعر موضوعاته ذات البعد العَقَديّ، ممّا يُكسب نصوصه مزيدا من الهيبة والقبول لدى المتلقّي.

يقول عبد الكريم القيسي:[2]

إِلَـى كَـمْ إِلَـهَ الخَلْـقِ يَـا جَـاهِلًا تَعْصِـي ... مَـــعَ العِلْـــمِ قَطْعًـــا أَنَّـــهُ عَـــالِمٌ يُحْصِـــي
وَتَرْضَـــى بِتَضْـــيِيعِ الفَـــرَائِضِ عَامِـــدًا ... وَأَنْـــتَ عَلَـــى اللَّـــذَّاتِ مُسْـــتَكِلُ الحِـــرْصِ
وَتَقْتَطِـــعُ بِـــالتَّفْرِيطِ يَوْمَـــكَ كُلَّـــهُ ... وَلَيْلَـــكَ بِالفِعْـــلِ القَبِـــيحِ وَتَسْتَعْصِـــي
وَتَلْـــبَسُ أَدْرَانَ الجَـــرَائِمِ جَاهِـــدًا ... وَتَعْـــرَى عَـــنِ الطَّاعَـــاتِ عَـــنْ أَشْـــرَفِ القَمْـــصِ

يُوجّه الشّاعر سؤالا إنكاريّا ،يتجاهل فيه العارف عن مقدار عُتوّه وإسرافه في النّهل من معين الملذّات، في قالب استفهاميّ مفتوح على الزّمن المستقبل، يُضمر دعوة إلى الكفّ عن ارتكاب المعاصي والإقبال على

[1] كريستيفا جوليا: علم النّصّ ، ترجمة فريد زاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال–المغرب،ط2،1997م،ص 21.
[2] القيسي(عبد الكريم): ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسيّ،ص 298–299.

الطّاعات، الّتي من شأنها أن تُطهّر الإنسان من دنس الذّنوب، وقد استدعى الشّاعر عبارة "تضييع الفرائض" معتمدا على التّناصّ بالتّقابل ،حيث انتقل باللفظة من سياقها الإنشائيّ الطّلبيّ في الحديث النّبويّ: "إنّ اللّه تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها"[1] إلى سياق خبريّ تقريريّ يُصوّر فيه حال المنْكَبّ على اللّذائذ المتهاون في أداء العبادات الواجبة.

وقد تواترت فكرة الوعظ والتّذكير عند عبد الكريم القيسي في كثير من أشعاره، وهو توجُّه متولّد أساسا عن هاجس الموت ،الّذي رافق الشّاعر في مساره المنذور للخيبات ،الّتي كان الأسر أمضّها[2] ،وأبعدها غورا في نفسه ممّا حوّل كلفه بالحياة إلى احتراز و توجّس من مآتيها،"فهذا الشّعور هو الّذي يدفع إلى التّقوى والإقلاع عن الذّنوب والتّوبة إلى اللّه وتذكّر الآخرة، وهو أمر طبيعيّ يستوي فيه الأندلسيّ وغير الأندلسيّ"[3]

وفي ذلك يقول: (الدّيوان،ص306-307)

وَكَـــمْ قَصَـــدُوا الفِـــرَارَ مِنْـــهُ فَمَـــا نَجَـــوا ... بِقصْـــــدِهِمْ إِذْ رَكْضُـــــهُ يُعْجِـــــزُ الرَّكْضَـــــا
وَأَحْكَامُـــهُ فِـــي الخَلْـــقِ بِالعَـــدْلِ قَـــدْ قَضَـــتْ ... فَمَـــا مِـــنْهُم مَـــنْ يَسَـــتَطِيعُ لَهَـــا نَقْضَـــا
وَأَسْـــهَلُ مَـــوْتِ المَـــرْءِ لَـــو صُـــبَّ بَأْسُـــهُ ... عَلَـــى جَبَـــلٍ ضَـــخْمٍ لَدَكْدَكَـــهُ رَضًّـــا
فَكَيْـــفَ وَمَـــا يَتْلُـــوهُ صَـــعْبٌ عَلَـــى الفَتَـــى ... وَمِنْـــهُ فَعُـــدّ الحَشْـــرَ وَالنَّشْـــرَ وَالعَرْضَـــا

يُقرّ الشّاعر في هذه الأبيات أنّ ما من سبيل للاعتصام من الموت أو الفكاك من قبضته، فقد جعله اللّه سبحانه وتعالى موردا لابدّ من وروده وعتبة يعقبها حشر ونشر وحساب، يُفضي بالتّقيّ الورع إلى جنّات الخلود ويُسْلم العاصي إلى نار احتشدت سور القرآن الكريم بالوعيد من أهوالها، ففيها (سرابيل من قطران ومقامع من حديد وماء كالمهل وطعام من ضريع ،وشوب من حميم)،وهو في ذلك يستحضر المعنى القرآنيّ للأية الكريمة: "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ (٨)(سورة الجمعة8)،حيث جاء معنى اللّفظة في السّياق الشّعريّ للبيت الأوّل منسجما مع معناها في السّياق القرآنيّ، برغم ما طرأ عليها من تحويل إلى المصدريّة (الفرار)،فهي في كلا السّياقين تدلّ على محاولات الإنسان المثقّل بالذّنوب الاحتيال لنفسه، والتماس سبيل النّجاة من الحساب.

وكثيرا ما يُذكّر الشّاعر بالمصير، الّذي لا يخرج عن احتمالين ثالثهما مرفوع:

[1] النّووي(محي الدّين يحي بن شرف):رياض الصّالحين، دار ابن الجوزي-المملكة العربيّة السّعوديّة ،ط1،1421هـ،ص76.
[2] ينظر دراسة محمّد بن شريفة :البسطي آخر شعراء الأندلس،ص34.
[3] شلبي(سعد إسماعيل): البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشّعر، عصر ملوك الطّوائف ،دار نهضة -مصر ،1978م ص310

وَبَعْـــدُ فَإِمَّـــا فِـــي الجِنَـــانِ كَرَامَـــةً وَرَفْـــعُ مَقَـــامٍ قَـــطُّ مَـــا يَعْقُـــبُ الخَفْضَـــا

وَإِمَّـــا عَـــذَابٌ فِـــي الجَحِـــيمِ مُؤَبَّـــدٌ أَتَـــى فِـــي كِتَـــابِ اللَّـــهِ تَبْيِينُـــهُ مَحْضَـــا

وهو معنى مستوحى من أيات قرآنيّة كثيرة وردت في معرض تبيان جزاء الخلق، بين نعيم الجنّة، قال اللّه تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧)" (سورة الكهف 107)،وبين أهوال النّار قال اللّه تعالى:" فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤)لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى (١٥)"(سورة اللّيل 14-15)

ويؤكّد ذلك في أكثر من موضع (الدّيوان،ص66)

وَقَـــدَرُ المَـــوْتِ بَـــيْنَ الكُـــلِّ مَعْدَلَـــةٌ فَكُـــلُّ حَـــيٍّ بِكَـــأْسٍ لِلْحِمَـــامِ سُـــقِي

وَأَتْبَـــعَ المَـــوْتُ أَهْـــوَالًا شَـــدَائِدُهَا مَـــنْ رَامَ مِـــنْهُمْ عَلَيْهَـــا الصَّـــبْرَ لَـــمْ يُطِـــقِ

فَـــالقَبْرُ أَوَّلُهَـــا هَـــوْلًا وَفِتْنَتُـــهُ عَظِيمَـــةٌ فَـــازَ مَـــنْ مِنْهَـــا نَجَـــا وَوُقِـــي

وَالبَعْـــثُ وَالحَشْـــرُ ثُـــمَّ العَـــرْضُ بَعْـــدَهُمَا فِـــي مَوْقِـــفٍ خُـــصَّ فِيـــهِ المَـــرْءُ بِـــالفرقِ

فالشّاعر يؤكّد على حتميّة الموت ،من خلال تجسيمها "كأس الحمام" وإعطائها صفة ماديّة تلتقطها حاسّة الذّوق باعتماد المجاز المرسل في علاقته المحلّيّة، وهو ما يتقاطع مع التّوظيف القرآنيّ في قوله عزّ وجلّ: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ "(١٨٥) (سورة آل عمران 185).

كما يُذكّر بما يتبعه من أهوال وشدائد ،ويُبصّر الغافل بحقيقة الحياة من خلال استحضار صورة القبر وعذابه وما يعقُبُه مِن بعث وحشر ثمّ عرض ترتاع له النّفوس، وتتوجّس خاتمتها، مُغترفا من المعين القرآنيّ في قوله عزّ وجلّ: "ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) (المؤمنون 16) وقوله جلّ شأنه:"وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)(سورة المؤمنون 79).

فقد غرس الشّاعر في تربة نصّه ألفاظا ذات خصوصيّة دينيّة، يتعذّر إحلال بدائل لغويّة محلّها، فالبعث والحشر والعرض مفردات لا يمكن تعاطيها خارج المناخ الإسلاميّ، الّذي يخلع عليها دلالتها الغيبيّة.

وهو يؤكّد ذلك في موضع ثالث،يدعو فيه إلى التّسليم بقضاء اللّه النّافذ(الدّيوان،ص74)

هُـــوَ القَضَـــاءُ إِذَا يَمْضِـــي مُقَـــدِّرُهُ لَـــمْ يَسْـــتَطِعْ رَدَّهُ ذُو الحَـــوْلِ وَالحِيَـــلِ

وَالمَـــوْتُ حَـــتْمٌ عَلَـــى الأَحْيَـــاءِ كُلِّهِـــم قَضَـــى بِـــهِ خَـــالِق الإِنْسَـــانِ مِـــنْ عَجَـــبِ

فَمَـــنْ يُقْـــدَرْ عَلَيْـــهِ المَـــوْتُ فِـــي صِـــغَرٍ لحـــدِّ عُمْـــرِ كَبِيـــرِ السِّـــنِّ لَـــمْ يَصِـــلِ

وَمَــنْ يَكُــنْ عُمْــرُهُ المَكْتُــوبُ ذَا قِصَــرٍ لَــمْ يُلْغِــهِ الــدَّهْرُ مُمْتَــدٌّ وَلَــمْ يُطِــلِ
فَسَــلِّمِ الأَمْــرَ لِلَّــهِ العَظِــيمِ كَمَــا أُمِــرْتَ وَارْضَ بِمَــا أَمْضَــاهُ وَاحْتَمِــلِ

فلا يخرج بذلك عن معنى الآية الكريمة:" قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١) (التوبة51)، في قصور لغويّ واضح عن أداء معناها في صياغتها الفنّيّة القرآنيّة، المشحونة على إيجازها بزخم من المعاني، يعكس الإعجاز البيانيّ لكلام اللّه عزّ وجلّ، الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويقول (الدّيوان،ص44):

وَتَفحَــصُ عَمَّــا لَــيْسَ يَعنِيــكَ دَائِمًــا وَمَهْمَــا يَكُــنْ يَعْنِيــكَ تِلْــكَ عَــنْ الفَحْــصِ
وَتُعْــرِضُ عَــنْ سَــمْعِ المَــوَاعِظِ لَاهِيًــا وَتُصْــغِي لِسَــمْعِ اللَغْــوِ وَبِالجِــدِّ ذَا رَقْــصِ
وَإِنَّ قَبِيحًــا أَنْ تُــرَى مِنْــكَ زِلَّــةٌ وَجِسْــمُكَ فِــي ضَــعْفٍ وَعُمْــرُكَ فِــي نَقْــصِ
وَقَــدْ ظَهَــرَتْ بِــالعودِ مِنْــكَ أَدِلَّــةٌ تَــدُلُّ بِــأَنَّ المَــوْتَ أَثْــرَكُ ذُو قَــصِّ
فَبَــادِرْ وَتُــبْ لِلَّــهِ تَوْبَــةَ صَــادِقٍ فَــالتَّوبِ مَحْــوُ الــذُّنُوبِ قَــدْ جَــاءَ بِــالنَّغْصِ

يُواصل الشّاعر تنبيه الغافل وتقريعه على صنيعه، الّذي يُسلمه إلى الوبال وسوء العاقبة، ويدعوه إلى تدارُك ما تبقّى من العمر المتسارع نحو الفناء ،والمبادرة إلى التّوبة الّتي من شأنها أن تمحو بكرم اللّه ذنوبه ورزاياه، واتّقاء مسالك الضّلال التي يُدرك الفطن مغبّتها، معتبرا بما اعترى جسمه من الضّعف وتحوّل الحال. حيث تكمن المناسبة التّناصّيّة من خلال الأبيات في إيراد معنى محو التّوبة للذّنوب، مُستوحيا معنى الحديث النّبويّ: "التّائب من الذّنب كمَن لا ذنب له"[1]

ويقول أيضا (الدّيوان،307):

فَعُــدْ عَــنِ الــزَّلَّاتِ وَانْهَــضْ لِطَاعَــةٍ فَخَيْــرُ الــوَرَى مَــنْ نَحْوَهَــا أَسْــرَعَ النَّهْضَــا
وَبِــالفَرْضِ قُــمْ لِلَّــهِ وَاشْــفَعْ لِسُــنَّةٍ فَيَــا فَــوْزَ مَــنْ أَضْــحَى بِهَــا يَشْــفَعُ الفَرْضَــا
فَقَــدْ وَعَــدَ الحُسْــنَى جَــزَاءً مُحَقَّقًــا لِمَــنْ خَــافَ فِــي الــدُّنْيَا لَــهُ أَحْسَــنَ القَرْضَــا
وَجِــئْ تَائِبًــا لِلَّــهِ مِمَّــا جَنَيْتَــهُ وَأَكْثِــرْ عَلَيْــهِ فِــي أَنَامِلِــكَ العَضَّــا
وَلَا تَرْضَــي غَيْــرَ الحــقّ خِــلًّا وَصَــاحِبًا لَعَــلَّ إِلَــهَ الخَلْــقِ عَنْــكَ أَخِــي يَرْضَــى

[1] أخرجه بن ماجة وحسّنه الألباني

ويتّخذ الشّاعر موقع المرشد دوما ،ليستنهض همّة مخاطبه للإقبال على صالح الأعمال اقتداء بسنّة خير الورى،والعكوف على أداء الفرائض والإمساك عن اجتراح الخطايا، والنّدم على اقترافها خوفا وخشية ورجاء للبديل الأخرويّ، الّذي أعدّه اللّه سبحانه وتعالى لعبيده التّوّابين. حيث يتعالق النّصّ الشّعريّ مع النّصّ القرآنيّ في استلهام دلالة "الغضب" في البيت الرّابع ،من خلال توظيف الكناية "عضّ الأنامل" للتّعبير عن وجوب انتفاض النّفس على غيّها ، وندمها على ما اجترحت .قال تعالى: "وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) (سورة آل عمران 119) "،دون تقيّد بالسّياق القرآنيّ المختصّ بمخاطبة الكفّار.

ونجد لغة الشّاعر إحاليّة في مجملها، حيث يعتمد ألفاظا مُستمدّة من المعجم القرآنيّ، ليُدرجها في نسقٍ شعريّ ذي مرجعيّة دينيّة ،"وليس الأمر بغريب على شاعر فقيه عدْلٍ يعرف ما له، وما عليه"[1]

يقول الشّاعر (الدّيوان،ص 357)

يَـا رَاقِـدًا طُـولَ هَـذَا اللَّيْـلِ لَـمْ يُفِـقِ قُـمْ لِلَّـذِي خَلَـقَ الإِنْسَـانَ مِـنْ عَلَـقِ
وَجَـاءَ بِالغَسَـقِ المَـاحِي بِظُلْمَتِـهِ ضَـوْءَ النَّهَـارِ وَمَـا يَتْلُـوهُ مِـنْ شَـفَقِ
وَمَـدَّ مِنْـهُ عَلَـى الآفَـاقِ سِـتْرَ دُجًـى عَـمَّ الجَمِيـعَ بِـهِ سِـتْرًا عَلَـى نَسَـقِ
وَجَـاءَ بِالصُّـبْحِ وَضَّـاحِ السَّـنَا فَجَـلَا بِنُـورِهِ المُتَلَالِـي ظُلْمَـةَ الغَسَـقِ
وَأَطْلَـعَ الشَّـمْسَ فِـي الآفَـاقِ مُشْـرِقَةً تَـرُوقُ بِـالنُّورِ مِنْهَـا نَـاظِرَ الحَـدَقِ
وَخَـوَّلَ الخَلْـقَ مِـنْ أَفْضَـالِهِ نِعَمًـا لِلْعَقْـلِ مُعْتَبَـرٌ فِـي بَحْرِهَـا الغَـرِقِ
وَحُكْمُـهُ بَيْـنَهُمْ أَمْضَـى بِقِسْـمَتِهَا بِمُقْتَضَـى العَـدْلِ لَا بِـالطَّيْشِ وَالخَـرَقِ

فالشّاعر يتوسّل بلفظة "العلق" ،الّتي تحيل على سورة العلق المكّيّة ،ليمنح نصّه بعدا عقديّا ،له وقعه في نفس المسلم، ليمضي في استعراض نِعم اللّه عزّ وجلّ، ودلائل قُدرته في الكون ،من قبيل التّنبيه ولفت انتباه الإنسان الجاحد، الّذي يؤْثر الرّكون إلى الدّعة والنّوم، بما يحرّه من تضييع لفُرص العبادة ،ونيل الثّواب الّذي اختصّ به اللّه سبحانه وتعالى عباده المخلصين، الّذين زجروا نفوسهم عن ملذّاتها ،وروّضوها بألوان العبادات، فالحديث عن النّعم الكثيرة في البيت السّادس يستدعي المعنى الوارد في الآية الكريمة: "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)(سورة النحل 18)،بالتّركيز على نعمه تعاقب اللّيل والنّهار، الّذي ينسجم مع التّركيبة

[1] الحسينيّ قاسم:الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ،ص30.

الخَلقيّة للكائنات، قال تعالى:" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١)"(سورة القصص71) وقال أيضا:"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)"(سورة القصص72)

وهو لذلك يُلحّ على الغافل أن يوقظ جفونا اعتادت الكرى، ويغتنم ليله في الادّخار للدّار الأخرى، مترسّما دأب الصّالحين، الّذين يقضون ليلهم كلّه في عبادة اللّه سبحانه وتعالى ،وتلاوة القرآن الكريم بلا فتور، ويركّز على أهمّيّة قيام الفجر، وتسبيح قدرة اللّه عزّ وجلّ في بديع خلقه، مستوحيا معنى الأية الكريمة: "فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)(سورة النساء 103)

فيقول:

فَيَـــا كَثِيـــرَ الزُّقَـــادِ احْـــذَرْ تَعَدِّيَـــةِ ... وَكَحِّـــلِ الجَفْـــنَ كُحْـــلَ السَّـــهْدِ وَالأَرَقِ
وَقُـــمْ إِلَـــى اللَّـــهِ قَبْـــلَ الفَجْـــرِ مُغْتَنِمًـــا ... مَهَـــبَّ الـــرِّيحِ الرِّضَـــا فِـــي زَيِّ مُنْتَشِـــقِ
فَقَـــدْ سَـــرَتْ بِشَـــذَاهُ نَسْـــمَةٌ نَفَحَـــتْ ... وَأَقْبَلَـــــتْ بِعَبِيـــــرٍ طَيِّـــــبٍ عَبِـــــقِ
وَبَشَّـــرَتْ بِطُلُـــوعِ الفَجْـــرِ نَفْحَتُهَـــا ... وَأَنَّـــهُ قَـــدْ دَنَـــا يَلْتَـــاحُ بِـــالأُفُقِ
وَالطَّيْـــرُ فَـــوْقَ غُصُـــونِ الـــرَّوضِ مُفْصِـــحَةٌ ... بِقُرْبِـــهِ بَـــيْنَ أَسْـــتَارٍ مِـــنَ الـــوَرَقِ
فَقُـــمْ مِـــنَ النَّـــوْمِ وَاذْكُـــرْ وَاحِـــدًا صَـــمَدًا ... فَـــذِكْرُهُ لِرِضَـــاهُ أَفْضَـــلُ الطُّـــرُقِ
فَالصَّـــالِحُونَ قِيَـــامٌ طُـــوَلَ لَـــيْلِهِمُ ... ذَوُو نَحِيـــبٍ عَظِـــيمِ الهَـــوْلِ مَـــعْ قَلَـــقِ
تَـــرَاهُمْ بَـــيْنَ تَـــالٍ لَا فُتُـــورَ لَـــهُ ... وَذَاكِـــرٍ لِاغْتِنَـــامِ الـــذِّكْرِ مُسْـــتَبِقِ

وتزداد حدّة الملامة والتّنبيه، أمام تقصير الإنسان في العبادات وجحود الفضل الإلهيّ، الّذي عمّ الوجود،فهو لذلك يتّخذ له لازمة "الفعل قم" يشحذ بها الهمم على امتداد القصيدة، مثنيا على النّوافل الإلهيّة، معدّدا صفات الجمال والجلال، الّتي تستوجب الوجل والخشوع، والإخلاص في العبادة، وقد ظهرت ملامح التّأثّر بالقرآن الكريم في الاقتباس اللّفظيّ في البيت الخامس لعبارة "عنت الوجوه" الواردة في الآية الكريمة: "وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)(سورة طه 111)،للدّلالة على خضوع العبد أمام جبروت ربّ العزّة.

يقول (الدّيوان،ص 287)

حَتَّـــى مَتَـــى وَإِلَـــى مَتَـــى يَـــا سَـــاه ... تُلْفَـــى كَثِيـــرَ النَّـــوْمِ قُـــمْ لِلَّـــهِ
قُـــمْ لِلَّـــذِي رَفَـــعَ السَّـــمَاوَاتِ العُلَـــى ... وَدَحَـــا بَسِـــيطَ الأَرْضِ فَـــوْقَ مِيَـــاهِ
قُـــمْ لِلَّـــذِي تَاهَـــتْ عُقُـــولَ الخَلْـــقِ فِـــي ... إِدْرَاكِ مَـــا أَبْـــدَاهُ أَيَّ مَتَـــاهِ
قُـــمْ لِلَّـــذِي عَـــمَّ الوُجُـــودَ بِجُـــودِهِ ... مِـــنْ طَـــائِعٍ أَوْ مُسْـــرِفٍ تَيَّـــاهِ
قُـــمْ لِلَّـــذِي عَنَـــتِ الوُجُـــوهُ لِوَجْهِـــهِ ... بِـــالطَّوْعِ أَوْ بِـــالعُنْفِ وَالإِكْـــرَاهِ
قُـــمْ لِلَّـــذِي أَضْـــفَى عَلَـــى أَحْبَابِـــهِ ... مِـــنْ فَضْـــلِهِ ثَـــوْبَ الجَـــلَالِ الزَّاهِـــي
قُـــمْ لِلَّـــذِي أَمَـــرَ الـــوَرَى وَنَهَـــاهُمُ ... أَعْظِـــمْ بِـــهِ مِـــنْ آمِـــرٍ أَوْ نَـــاه

ولا يني الشّاعر داعيا إلى هجر اللّذائذ واطّراحها، والتّزوّد بذخيرة من التّقوى وصالح الأعمال، أمام إدراك عميق لمصير الإنسان المقدّر: (الدّيوان ص320)

تَنَبَّـــهْ مِـــنْ نُعَاسِـــكَ لَا تُطِلْـــهُ ... فَقَـــدْ أَفْرَطْـــتَ فِـــي طُـــولِ النُّعَـــاسِ
فَمَوْتُـــكَ يَـــا أَخِـــي وَالبَعْـــثُ حَـــقٌّ ... وَأَنْـــتَ الـــدَّهْرَ لِلْأَمْـــرَيْنِ نَـــاسِ
فَحَـــاذِرْ مِنْهُمَـــا مَـــا عِشْـــتَ وَاهْجُـــرْ ... نَعِيمَـــكَ بِالمَطَـــاعِمِ وَاللِّبَـــاسِ
وَبَعْـــدَهُمَا مُحَاسَـــبَةٌ وَهَـــوْلٌ ... يَشِـــيبُ لَـــهُ الصَّـــغِيرُ مِـــنَ الأُنَـــاسِ
وَيَنْقَسِـــمُ الخَلَائِـــقُ بَعْـــدُ إِمَّـــا ... لِنُعْمَـــى لَا تُفَـــارَقُ أَوْ لِبَـــاسِ
فَمَـــنْ أَضْـــحَى هَـــذَا مُنْتَهَـــاهُ ... فَحَـــقٌّ أَنْ يُشَـــاهَدَ ذَا احْتِـــرَاسِ

أمّا الشّيب فقد كان له حُضُوره في قصائد البسطي، الّتي تنمّ عن اتّعاظ واعتبار:

يقول القيسي: (الدّيوان،ص306)

أَفِـــقْ لِمَشِـــيبٍ بَرْقُـــهُ يُكْثِـــرُ الوَمَضَـــا ... وَبِـــتْ بِفُـــؤَادٍ حَـــرُّهُ دُونَـــهُ الرَّمْضَـــا
وَأَيْقِـــظْ جُفُونًـــا طَالَمَـــا اعْتَـــادَتِ الكَـــرَى ... فَأَجْفَـــانُ أَهْـــلِ الهُـــدَى لَا تَعْـــرِفُ الغَمْضَـــا
وَكَيْـــفَ يَطِيـــبُ النَّـــوْمُ لِلْجَفْـــنِ لَحْظَـــةً ... وَفِـــي الخَلْـــقِ قَاضِـــي المَـــوْتِ أَحْكَامُـــهُ أَمْضَـــى
فَأَفْنَـــاهُمُ كُـــلًّا مُلُوكًـــا وَسُـــوقَةً ... وَمَـــا حَـــاشَ مِـــنْهُمْ إِذْ نَحَـــا نَحْـــوَهُمْ بَعْضًـــا

تعبّر الأبيات عن موقف زهديّ، يدعو فيه الشّاعر إلى الإفاقة من الغفلة، حينما لمح الشّيب قد غزا مفرقه فصار يومض كالبرق إيذانا بخريف العمر، وقدوم الحِمام الّذي تستوي عنده مقامات البشر ومراتبهم، وقد استعان في تقريب الصّورة بالتّشبيه البليغ، الّذي جعل من الموت قاضيا نافذ الأحكام، منزاحا عن الصّياغة القرآنيّة في قوله تعالى: "سُنّةَ اللّهِ فِي الّذِين خَلَوا مِن قَبْلُ وكان أمْرُ اللّهِ قَدَرًا مَقْدُورا"(سورة الأحزاب 38).

ويتّخذ الشّاعر من العمر واعظا، يردع النّفس كلّما طاف بها طائف من الهوى، فيُذكّرها بانقضاء الشّباب وتولّي زمن النّزق، متمثّلا في البيت الثّالث قوله تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" (٣٨)(سورة المدثر 38)

يقول: (الدّيوان، ص407).

إِذَا مَـــا الـــنَّفْسُ مَـــالَ بِهَـــا هَوَاهَـــا لِأَمْـــــرٍ مَـــــا شِـــــمَالًا أَوْ يَمِينًـــــا
أَقُـــولُ لَهَـــا اقْصِـــدِي نَفْسِـــي وَكُفِّـــي فَـــــإِنِّي قَـــــدْ بَلَغْـــــتُ الأَرْبَعِينَـــــا
وَحَسْـــبِي مَـــا مَضَـــى عَنِّـــي وَوَلَّـــى وَأَصْـــــبَحْتُ الغَـــــدَاةَ بِـــــهِ رَهِينَـــــا

ويحرص أيّما حرص على مجانبة "الهوى" متشرّبا معنى قوله تعالى: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)(سورة النّازعات -40-41)

فَمَـــازَالَ الهَـــوَى يُـــرْدِي قَـــدِيمًا وَيُـــــوَرِثُ أَهْلَـــــهُ دَاءً دَفِينَـــــا
وَمَـــنْ عَـــادَى الهَـــوَى وَالعَكْـــسَ وَالَـــى مِـــنَ الشَّـــرِّ اقْتَنَـــى عَلَقًـــا ثَمِينًـــا
وَسَـــارَ بِسِـــيرَةٍ يُثْنَـــى عَلَيْهَـــا وَسَـــاوَى مَـــنْ سَـــمَا عِلْمًـــا وَدِينَـــا

ويتعمّق إحساس الشّاعر بوطأة الشّيب، وتقدُّم العمر، كلّما عاين جسده الّذي عدا عليه الزّمن، وانتفت عنه مظاهر القوّة، واستوطنه الوهن، فيتوجّه إلى اللّه تعالى تائبا ذارفا دموع الحسرة على ما أتى من رزايا (الدّيوان،ص437):

إِلَـــى كَـــمْ إِلَهِـــي بِالمَتَـــابِ أُعَاهِـــدُ وَنَفْسِـــي عَلَيْـــهِ كَـــلَّ وَقْـــتٍ أُجَاهِـــدُ
وَعَهْـــدِي مَـــدَى الأَيَّـــامِ لَسْـــتُ بِـــهِ أَفِـــي وَنَفْسِـــي عَلَـــى عَادَاتِهَـــا لَا تُسَـــاعِدُ

وَأَكْثَـرُ عُمْـرِي فِـي البَطَالَـةِ قَـدْ مَضَـى ... وَلَـيْسَ لِمَاضِـي العُمْـرِ وَاللَّـهِ عَائِـدُ
وَقَـدْ ذَهَبَـتْ مِنِّـي القِـوَى وَتَغَيَّـرَتْ ... وَهَـلْ قُـوَّةٌ بَعْـدَ الـذَّهَابِ تُعَـاوِدُ؟
وَشَـابَ عِـذَارِي وَاسْـتَحَالَ سَـوَادُهُ ... وَبِـالمَوْتِ لَاشَـكَّ المَشِـيبُ يُعَـاوِدُ
فَهَـلْ تَوْبَـةٌ تَمْحُـو مِـنَ الـذَّنْبِ مَـا بِـهِ ... عَلَـيَّ وَلَا أُخْفِـي إِلَهِـي شَـاهِدُ
أَبِيـتُ لِمَـا قَـدْ جِئْتُـهُ مِنْـهُ خَائِفَـا ... وَإِنِّـي لِخَـوْفِي سَـاهِرُ الطَّـرفِ سَـاهِدُ
وَدَمْعِـي بِصَـحْنِ الخَـدِّ هَـامٍ كَأَنَّـهُ ... جُمَـانٌ هَـوَى مِـنْ سِـلْكِهِ مُتَنَاضِـدُ

عايش الشّاعر تجربة الأسر المريرة، الّتي قاسى فيها من الويلات ما أقامه بين يدي بارئه متضرّعا، معلّقا رجاءه على مِنّته في فكّ سراحه، وفي ذلك يقول (الدّيوان ،ص 192):

يَـا مَـنْ عَلَيْـهِ فِـي السَّـرَاحِ أَعْـوِّلُ ... وَإِلَيْـهِ فِـي تَعْجِيلِـهِ أَتَوَسَّـلُ
أَنْـتَ المُؤَمَّـلُ لِلشَّـدَائِدِ كُلِّهَـا ... وَعَلَيْـكَ فِـي تَخْفِيفِهَـا أَتَوَكَّـلُ
وَلَقَـدْ قَضَـيْتَ عَلَـيَّ بِالأَسْـرِ الّـذِي ... مَـا مِثْلَـه خَطْـبٌ عَظِـيمٌ مُعْضَـلُ
فَحَمَلْـتُ مِـن كُرُبَاتِـهِ الكَـرْبَ الّـذِي ... مَـا مِثْلَـهُ شَـخْصٌ أَسِـيرٌ يَحْمِـلُ
وَصَـبَرْتُ صَـبْرَ مُفَـوِّضٍ لَـكَ أَمْـرَهُ ... رَاضٍ بِمَـا تَقْضِـيهِ فِيـهِ وَتَفْعَـلُ
يَـا رَبِّ فَـامْنُنْ بِالسَّـرَاحِ مُعَجِّـلًا ... فَأَنَـا سَـرَاحِي مِـنْ جَلَالِـكَ أَسْـأَلُ

وقال في السّياق نفسه (الدّيوان ،ص99):

مَـا فِـي الوُجُـودِ سِـوَاهُ أَرْجُـو فَضْـلَهُ ... فِـي أَنْ يُبَـدِّلَ شِـدَّتِي بِرَخَـاءِ
وَيحُـلَّ قَيْـدَ الأَسْـرِ عَنِّـي عَـاجِلًا ... مَـعَ مَـنْ بِأُبَّـذَةَ مِـنَ الأُسَـرَاءِ
فَهُـوَ المُفَـرِّجُ لِلْكُـرُوبِ إِذَا دَهَـتْ ... وَبِـهِ انْجِـلَاءُ نَوَائِـبِ الأَسْـوَاءِ

وقال أيضا: (الدّيوان،ص295)

يَـا مَـنْ إِذَا يُـدْعَى يُجِيـبُ تَفَضُّـلَا ... وَإِذَا لَـهُ يُشْـكَى يَحِـنُّ وَيَعْطِـفُ
يَـا مَـنْ إِذَا الأَزَمَـاتُ عَمَّـتْ لَـمْ يَـزَلْ ... بِـالخَلْقِ يَرْفِـقُ بِـالجَمِيعِ وَيَلْطِـفُ
يَـا مَـنْ إِذَا الكُرُبَـاتُ حَلَّـتْ لَـمْ يَـزَلْ ... يَكْفِـي الكُـرُوبَ الحَادِثَـاتِ وَيَكْشِـفُ
أَنْـتَ الّـذِي تُرْجَـى لِكُـلِّ عَظِيمَـةٍ ... حَلَّـتْ بِنَـا مِـنْ أَجْلِهَـا نَتَخَـوَّفُ

أَنْـــتَ الّـــذِي تُلْفَـــى لِكُـــلِّ مُلِمَّـــةٍ تَنْفِـــي الّـــذِي مِنْهَـــا أَلَـــمَّ وَتَصْـــرِفُ

فالشّاعر يناجي اللّه سبحانه وتعالى، بما وقر في صدره من محبّة وامتنان لعظيم فضله وواسع رحمته، وهو يستجير بمنعته ويلوذ بجواره في مواجهة ما نزل به من خطوب، و يجأر إليه بشكوى الحال، مستلهما معنى الآية الكريمة: "قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦)(سورة يوسف86)

وهو لا ينفكّ معلّقا رجاءه على من أحاط بعلمه كلّ شيء، فيقيم في البيت الأوّل علاقة حواريّة مع مضمون الخطاب الإلهيّ في قوله تعالى: "وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)"(سورة طه 7)

فيقول: (الدّيوان،ص425)

إِلَهِـــي رَجَـــائِي كَمَـــا كَـــانَ فِيـــكَ وَأَنْـــتَ بِسِـــرِّي وَجَهْـــرِي خَبِيـــرُ
وَمَـــا مِنْـــكَ أَرْجُـــو إِذَا شِـــئْتَهُ فَسَـــهل إِلَهِـــي عَلَيْـــكَ يَسِـــيرُ
وَكَـــمْ مُـــرْتَجٍ نَـــالَ مِنْـــكَ الَّـــذِي رَجَـــا فَلَـــهُ مِنْـــهُ حَـــظٌّ كَثِيـــرُ
فَهَـــبْ لِـــي إِلَهِـــي الّـــذِي مِنْـــكَ أَرْجُـــو فَأَنْـــتَ عَلَـــى كُـــلِّ شَـــيْءٍ قَـــدِيرُ

فالشّاعر لا يفتأ يتوجّه للّه مبتهلا راجيا لطفه، لإزاحة ما أثقل كاهله من آلام الأسْرِ ومذلّته.

ويقول:(الدّيوان،ص110)

إِذَا ضَـــاقَ ذَرْعِـــي بِاحْتِمَـــالِ عَنَـــائِي مَـــدَدْتُ إِلَـــى رَبِّـــي يَـــدِي بِـــدُعَائِي
فَـــأَدْعُو وَأَرْجُـــو أَنْ يُجِيـــبَ تَكَرُّمًـــا وَحَاشَـــا وَكَـــلَّا أَنْ يَخِيـــبَ رَجَـــائِي
فَفِـــي الـــذِّكْرِ نَـــصٌّ بِالإِجَابَـــةِ مُفْصِـــحٌ غَـــدَا شَـــاهِدًا مِـــنْ أَعْـــدَلِ الشُّـــهَدَاءِ

حيث يتّخذ في البيتين الثّاني والثّالث من الدّعاء سبيلا شرعيّا لإجابة الطّلب، مصداقا لوعد إلهيّ نصّ به الذّكر الحكيم في قوله جلّ شأنه وعلا: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)"(البقرة 186)

وقد يرى أنّ ذنوبا ارتكبها كانت من أسباب محنته وأسره وفي ذلك يقول نادما (الدّيوان، الصّفحة نفسها):

فَيَـــا رَبِّ يَسِّـــرْ كُـــلَّ عُسْـــرٍ قَضَـــيْتَهُ عَلَـــيَّ وَفَـــرِّجْ كُرْبَتِـــي وَبَلَائِـــي
وَجُـــدْ بِجَمِيـــلِ العَفْـــوِ عَنِّـــي تَفَضُّـــلًا فَعَفْـــوُكَ يَـــا رَبِّـــي أَجَـــلُّ مُنَـــائِي
وَلَا تَلْتَفِـــتْ نَحْـــوَ الـــذُّنُوبِ الَّتِـــي مَضَـــتْ فَمِنْهَـــا بَـــلَاءُ الأَسْـــرِ أَعْظَـــمُ دَاءِ
فَلَـــمْ آتِهَـــا جَـــذْلَانَ يَـــومَ أَتَيْتُهَـــا وَأَنْـــتَ بِجَهْـــرِي عَـــالِمٌ وَخَفَـــائِي

ثمّ يعود ويعزو اقترافها إلى كيد شيطانيّ استزلّه:

وَمَـــا كُنْـــتُ أَرْضَـــاهَا لِنَفْسِـــي سَـــجِيَّةً أُعَـــابُ بِهَـــا فِـــي بُكْرَتِـــي وَمَسَـــائِي
وَلَكِنَّمَـــا الشَّـــيْطَانُ غَـــرَّ بِكَيْـــدِهِ فَوَاقَعْـــتُ مِنْهَـــا مَـــا أَطَـــالَ بُكَـــائِي

2- المديح النّبويّ عند عبد الكريم القيسي:

تبرّك الشّاعر بتناوُل غرض المديح النّبويّ ،الّذي غدا سِفرا شِعريّا للسّيرة النّبويّة المطهّرة، وتُرجمانا لما اختلج نفسه من عاطفة دينيّة سامية.

يقول عبد الكريم القيسي: (الدّيوان،ص32-33)

وِصَـــالُكَ مَقْصُـــودِي فَهَـــلْ أَنْـــتَ وَاصِـــلُ ... فَلَـــيْسَ بِقَلْبِـــي غَيْـــرُ حُبَـــكَ حَاصُـــلُ
وَبِـــي أَنَّـــهُ مِـــنْ أَجْـــلِ بُعْـــدَكَ قَـــدْ بَـــدَتْ ... تَكَـــادُ لَهَـــا مِنِـــي تُقَـــدُّ المَفَاصِـــلُ
وَلَـــوْ جَـــادَ لِـــي دَهْـــرِي بِقُرْبِـــكَ سَـــاعَةً ... لَنِلْـــتُ مِـــنْ الـــدُنْيَا الـــذِي أَنَـــا آَمـــلُ
فَيَالَيْـــتَ شِـــعْرِي هَـــلْ أَفُـــوزُ بِنَيْلِهَـــا ... وَأَبْلُـــغُ مِنْهَـــا عَـــاجِلاً مَـــا أُحَـــاوِلُ

لا يني الشّاعر يصوّر تباريح الحبّ النّبويّ الّذي استوطن مهجته، وأوسع روحه ألما ،فهو لا يأمل من الدّنيا بغير اللّقاء الّذي تختزل فيه كلّ أمانيه، ويظلّ في تطلّع وترقّب لبلوغ هذا المبتغى.

لأنّه موقن بتجرّده من كلّ قدرة على تحمّل الحنين ،الّذي يشدّ نياط قلبه إلى الجوار المحمّديّ، فيستقي ألفاظه من **مُعجم صوفيّ**، مُشبع بدلالات تلويحيّة، تعكس التّداخُل بين غَرَضَي التّصوّف والمديح النّبويّ، باعتبارهما قالبين فنّيين للتّعبير عن العاطفة الدّينيّة.

يقول عبد الكريم القيسي: (الدّيوان،ص24)

لَـــوْ كُنْـــتُ للمَحْبُـــوبِ يَوْمًـــا جَلْـــدًا ... مَـــا كُنْـــتُ أَشْـــكُو اليَـــوْمَ جِهَـــارًا
وَلَمَـــا شَـــكَا جَفْنِـــي القَـــرِيْحُ سُـــهَادَهُ ... وَلَمَـــا شَـــكَا قَلْبِـــي المُشَـــوَّقُ نَـــارًا
لَكِنَّنِـــي أُبْعِـــدْتُ عَـــنْ أَوْطَانِـــهِ ... لاَ طَائِعًـــا كَـــلّا وَلاَ مُخْتَـــارًا
فَعَلَـــى فُـــؤَادِي أَنْ يَـــذُوبَ صَـــبَابَةً ... وَعَلَـــى دُمُـــوعِي أَنْ تصـــوبَ غِـــزَارًا

ويصوّر في موضع آخر شوقه إلى البقاع المقدّسة، الّتي شرفت بوطأة النّعال المحمّديّة ثراها، ويخصّ بالذّكر يثرب، الّتي تفرّدت بضمّ جثمانه-صلّى اللّه عليه وسلّم-،ثمّ ينتقل إلى وصف الحجيج، الّذين أخلصوا للّه نواياهم قاصدين بيته الحرام لأداء فريضة دينيّة عظيمة، لم يستطع إليها سبيلا، يقول (الدّيوان، ص437-438):

وَهَـــلْ زَوْرَةٌ نَحْـــوَ الرّسُـــولِ بِيَثْـــرِبٍ تُقَـــرِّبُ مِنِـــي مَـــا الزَّمَـــانُ يُبَاعِـــدُ
أُدَاوِي بِهَـــا قَلْبًـــا مِـــنَ الوَجْـــدِ رَاجِفًـــا وَأَطْفِـــي مِـــنَ الأَشْـــوَاقِ مَـــا أَنَـــا وَاجِـــدُ
وَأَغـــدُو بِهَـــا فِـــي مَوْقِـــفِ القُـــرْبِ دَائِمًـــا فَفِـــي مَقْعَـــدِ الإِبْعَـــادِ كَـــمْ لِـــي قَاعِـــدُ
وَأَصْـــحَبُ مِـــنْ رَكْـــبِ الحِجَـــازِ لِقَبْـــرِهِ رِجَـــالًا لَهُـــمْ فِـــي الصِّـــدْقِ بَانَـــتْ مَقَاصِـــدُ
تَـــرَاهُمْ يَصُـــومُونَ النَّهَـــارَ تَطَوُّعـــاً وَمَـــا مِـــنْهُمُ إِلَّا مَـــدَى اللَّيْـــلِ سَـــاجِدُ
يَؤُمُّـــونَ بَيْـــتَ اللَّـــه يَبْغُـــونَ فَضْـــلَهُ وَلَـــيْسَ لِبَـــاغِي الفَضْـــلِ بِالبَيْـــتِ ذَائِـــدُ
وَقَـــدْ أَحْرَمُـــوا بِـــالحَجِّ مِـــنْ بَعْـــدِ غُسْـــلِهِمْ وَتَجْرِيْـــدِ مَلْبُـــوسٍ بِـــهِ الأَمْـــرُ وَارِدُ
وَلَبُّـــوا جِهَـــارًا بِاليَفَـــاعِ وَبِالرُّبَـــى إِلهًـــا لَـــهُ بِـــالجُودِ عَـــادَتْ عَوَائِـــدُ

ثمّ يعرّج على معجزات النّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلّم- فيقول (الدّيوان،ص28):

لَمَّـــا اسْـــتَهَلَّ لَـــدَى الـــوِلَادَةِ صَـــارِخًا صَـــدَعَ الظَّـــلاَمُ لِنُـــورِهِ فَأَنَـــارَا
وَاهْتَـــزّتِ الـــدُّنْيَا لَـــهُ فَرَحًـــا بِـــهِ وَاسْتَبْشَـــرَتْ بِظُهُـــورِهِ اسْتِبْشَـــارَا
وَسَـــرَتْ بِأَنْفَـــاسِ العَبِيْـــرِ نَوَاسِـــمٌ مَـــلأَتْ بِـــهِ الأَنْجَـــادَ وَالأَغْـــوَارَا
وَبَـــدَتْ لِمَوْلِـــدِهِ الشَّـــرِيْفِ عَجَائِـــبُ مَـــا مِثْلَهَـــا أَبْـــدَاهُ دَهْـــرٌ دَارَا
فَخَبَـــتْ لَـــهُ نِيْـــرَانُ فَـــارِسَ آيَـــةً فَغَـــدَتْ وَمَـــا تَسْـــتَطِيعُ تُوقَـــدُ نَـــارَا
وَارْتَـــجَّ مِـــنْ إِيـــوَانِ كِسْـــرَى جَانِـــبٌ سَـــقَطَتْ بِـــهِ شُـــرُفَاته إِنْـــذَارَا
وَالمَـــاءُ أَضْـــحَى بِـــالبُحَيْرَةِ نَاضِـــبًا مِـــنْ أُمِّـــهِ لَـــمْ يَحْمَـــدِ الإِصْـــدَارَا
وَالنُّـــورُ فَـــاضَ عَلَـــى الجِهَـــاتِ ضِـــيَاؤُهُ فَجَـــلَا قُصُـــورًا لِلْعِـــدَى وَدِيَـــارَا
وَرَأَتْ حَلِيْمَـــةُ مِـــنْ سَـــنَا بَرَكَاتِـــهِ نُـــورًا أَدَرّ لِبَانَهَـــا إِدْرَارَا
وَأَقَالَهَـــا مِـــنْ قِلَّـــةٍ قَطَعَـــتْ بِهَـــا دَهْـــرًا خَؤُونًـــا لَـــمْ يَـــزَلْ غَـــدَّارَا

فالشّاعر يستعرض جملة من المعجزات،الّتي حفلت بها كتب السّيرة النّبويّة،(**كتصدّع إيوان كسرى وسقوط شرفاته قبل ولادته،وانطفاء نار المجوس ،وتظليل الغمام له ،وغيض بحيرة طبريّة،وقطع رصد الشّياطين ومنعهم استراق السّمع، والخير الّذي أصاب مرابع حليمة**...) في أسلوب يقترب من التّقريريّة ،الّتي تجعله أشبه بالنّظم العلميّ.

ويرصد في موضع آخر، ما صاحب مولده – صلّى اللّه عليه وسلّم- من مظاهر كونية، تدلّ على عظمة هذا الحدث وجلاله، فيقول(الدّيوان،ص34):

وَأَيَّـــــدَهُ بِـــــالمُعْجِزَاتِ لِأَنّهَـــــا لِتَصْـــــدِيقِهِ فِيمَـــا يُقَـــالُ رَسَـــائِلُ
فَشُـــقَّ لَـــهُ البَـــدْرُ المُنِيـــرُ بِمَكَّـــة وَنَـــادِي قُـــرَيشٍ عِنْـــدَ ذَلِـــكَ حَافِـــلُ
وَأَفْصَـــحَ يَشْـــكُوهُ البَعِيـــرُ لِضَـــعْفِهِ وَبِالعَمَـــلِ الصَّـــعْبِ الّـــذِي هُـــوَ عَامِـــلُ
وَحَـــنَّ لَـــهُ الجِـــذْعُ الـــذِي صَـــحَّ يُبْسُـــهُ وَأَنَّ أَنِينًـــــا مِثْلَمَـــــا أَنَّ عَاقِـــــلُ
وَأَقْبَلَـــتِ الأَشْـــجَارُ تُسْـــرِعُ نَحْـــوَهُ غَـــدَاةَ دَعَاهَـــا لاَ تَنِـــي أَوْ تُمَاطِـــلُ
وَرَدَّ بِمَـــرْأَى الخَلْـــقِ عَـــيْنَ قَتَـــادَةٍ وَقَـــدْ كَـــانَ مِنْهَـــا سَـــالَ بِالخَـــدِ سَـــائِلُ

ثم ينتقل الشّاعر إلى الوحي والهجرة، وما صاحبهما، من إيذاء المشركين له ولرفيق رحلته أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، وما كان من رعاية الله لرسوله –صلّى اللّه عليه وسلّم- ، حيث قيّض له حشرة تنسج على فوهة الغار سترا، يوهم جموع الشّرك، يقول **عبد الكريم القيسيّ** (الدّيوان،ص 29)

وَمِـــنَ العَجَائِـــبِ آيَـــةٌ الغَـــارِ الّتَـــي صَـــحَتْ فَأَنْجَـــدَ ذِكْرُهَـــا وَأَغَـــارَا

ثم ينتقل إلى وصف ما اعترى دليل قريش، وما انتاب سراقة بن مالك، عندما همّ بإدراك ركب النّبيّ –صلى الله عليه وسلم-، فيقول:(الدّيوان،ص30)

عَمِيَـــتْ بَصِـــيرَتُهُ فَلَـــمْ يُبْصِـــرْ بِهَـــا أَحَـــدًا بِدَاخِلِـــهِ حَـــوَى اسْـــتِقْرَارَا
وَمُحَمَـــدٌ فِيْـــهِ مَـــعَ الصِّـــدِّقِ قَـــدْ سَـــدَلَ الإِلَـــهُ عَلَيْهِمَـــا أَسْـــتَارا
وَسُـــرَاقَةُ إِذَا أَمَّـــهُ بِجَـــوَادِهِ لِخُرُوجِـــهِ عَـــنْ قَوْمِـــهِ إِسْـــرَارَا
غَرِقَـــتْ قَوَائِمُـــهُ عِقَابًـــا فِـــي الثَّـــرَى فَـــرَأَى الرُّجُـــوعَ، وَلَـــوْ أَبَـــاهْ لَبَـــارَا

وقد تناول عبد الكريم القيسي معجزة الإسراء و المعراج، بأسلوب مفصّل، مضيفا إليها تباين ردود فعل أصحابه من جهة، وكفار قريش، من جهة ثانية، متمثّلا قوله تعالى في سورة الإسراء: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)"(سورة الإسراء الآية 1)

فقال (الدّيوان،ص 29) :

وَسَـــمَا بِـــهِ فَـــوْقَ السَـــمَوَاتِ العُلَـــى وَأَرَاهُ مِـــــن آيَاتِـــــهِ أسْـــــرَارَا
فِـــي صُـــحْبَةِ الـــرُوحِ الأَمِـــينِ كَرَامَـــةً وَعَـــلاَ عَلَـــى ظَهْـــرِ البُـــرَاقِ فَطَـــارَا
إِيـــــه وَفَارِقَـــــةُ الأَمِـــــيْنُ بِمَوْضِـــــعٍ هُـــوِ حَـــدّهُ مَـــا جَـــازَهُ اسْـــتِمْرَارَا
فَشَـــكَا إِلَيـــهِ فِرَاقَـــهُ ثُـــمَ اِرْتَقَـــى فَغَـــدَا يَشُـــقُّ الحُجْـــبَ وَ الأَنْـــوَارَا
حتَـــى دَنَـــا مِـــنْ رَبِـــهِ جَـــلَّ اسْـــمُهُ فَأُجَلَّـــهُ وَقَضَـــىَ لَـــهُ الأَوْطَـــارَا

ويشير عبد الكريم القيسي دونما تصريح إلى معجزة رمي النّبيّ –صلى الله عليه وسلم– للثّرى في وجوه المشركين في غزوة بدر، فلم يبق منهم رجل إلا امتلأت عيناه وأنفه وفمه بالثرى، فأنهزموا:(الدّيوان،ص26)

وَهَزِيمَـــــةُ الأَحـــــزَابِ أَبْـــــدَاهاَ لَـــــهُ فَبَـــــدَتْ لِيُظْهِـــــرَ دِيْنَـــــهُ إِظْهَـــــارَا
وَرَمَـــى التُـــرَابَ عَلَـــى الُتَـــرابِ عَلَـــى العِـــدَى فِـــي الـــبعْضِ مِـــنْ غَزَوَاتِـــهِ فَغَـــدَاَ لُـــه أَحْجَـــارَا

غير أنّ القرآن الكريم يبقى أعظم المعجزات الّتي أيّد بها اللّه عزّ وجلّ نبيّه، فأعجز بسحر بيانه قوما يحترفون الفصاحة وبلاغة القول، يقول عبد الكريم القيسي(الدّيوان ص30):

إِعْجَـــازُهُ عِنْـــدَ الإِلَـــهِ مُجَـــدَّدٌ مَـــا جَـــدَّدَ الأَعْـــوَامَ وَالأَعْصَـــارَا
فَجَمِيـــعُ مَـــنْ فِيـــهِ أَقَـــرَّ بِعَجْـــزِهِ عَـــنْ أَنْ يُعَـــارِضَ سُـــورَةً إِقْـــرَارَا
وَلَقَـــدْ أَتَـــى وَالَوقْـــتُ وَقْـــتُ بَلاَغَـــةٍ مَـــا فِيْـــهِ إِلَّا مِـــن رَوَى أَشْـــعَارَا
عَرَفُـــوا بَلاَغَتَـــهُ وَحُسْـــنَ مَسَـــاقِهِ فَاسْتَشْـــعَرُوُا إِعْجَـــازَهُ اِسْتِشْـــعَارَا

وشاعرنا عبد الكريم القيسي قد عايش تجربة الأسر المريرة ،الّتي جعلته يتمسّك بأهداب الدّين ،الّذي من شأنه أن يلهمه السّلوان ،وهو يتوجه بشفاعته للنّبيّ صلى الله عليه وسلم فعسى أن يُفك قيد سراحه،فقال، وهو رهن الأسر بأبذة:(الدّيوان ص30-31)

يـــاَ خَـــاتَمَ الأَرْسَـــالِ يَـــا خَيْـــرَ الـــوَرَى وَأَجَـــلَّ مِـــنْ سَـــحَبَ الَنجَـــاةَ أَثَـــارَا
أَنْـــتَ الَعظِـــيُم لَـــدَى الإِلَـــهِ شَـــفَاعَةً وَأَجَـــلُّ مَخْلُـــوقٍ عَـــلَا مِقْـــدَارَا
مَـــا لِـــي إِلَـــى رَبِـــيّ سِـــوَاكَ وَسِـــيلَةٌ أَرْجُـــو بِهَـــا أَنْ تَمْحُـــوا أَوْزَارَا
فَلَقَـــدْ غَـــدَوْتُ خلْـــفَ أَسْـــرِ مُكْـــرِبٍ بِـــدِيَارِ قَـــوْمٍ أَصْـــبَحُوا كُفَـــارَا

يُمْسِـــي وَيُصْـــبِحُ فِـــي الحَدِيـــدِ مُقَيَّـــداً مَعَ جُمْلَةٍ مَن مُسْلِميـــــنَ أَسَـارَى

وهو تارة أخرى يستشفع النّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلّم- التماسا للبُرء من الأسقام ،الّتي برت جسده،فيقول (الدّيوان،ص369):

بِجَاهِـــكَ يَـــا خَيْـــرَ البَرِيَّـــةِ أَرْتَجِـــي شِـــفَاءً مِـــنَ الأَسْـــقَامِ وَالبُـــؤْسِ وَالضُّـــرِ
وَكَيْـــفَ بِـــذَاكَ الجَـــاهِ لاَ أَرْتَجِـــي الشِـــفَا وَأَنْـــتَ شَـــفِيْعُ الخَلْـــقِ فِـــي مَوْقِـــفِ الحَشْـــرِ
فَيَـــا رَبِّ يَسِّـــرْ لِـــي الشِّـــفَاءَ بِجَاهِـــهِ وَسَـــهِّل سَـــبِيلَ الْبُـــرْءِ يَـــا سَـــابِغَ السِّـــتر
وَمَـــا بِـــي مِـــنْ عُسْـــرٍ أُعَـــانِي خُطُوبَـــهُ أَدِلْـــهُ إِلَهِـــي يَـــا مُهَـــيْمِنُ بِاليُسْـــرِ
وَمَـا شَـفَّ جِسْـمِي مِـنْ سِـقَامٍ وَمِـنَ ضَـنَى بِجَـــاهِ رَسُـــولِ اللَّـــه قَابِلْـــهُ بِـــالجَبْرِ

كما يلتمس **التّلطّف** في القضاء الإلهيّ –الّذي يتعذّر ردّه- بوساطة من النّبيّ الكريم- صلّى اللّه عليه وسلّم- ،فيقول(الدّيوان،ص103) :

وَتَوَسُّـــلِي للَّـــه جَـــلَّ جَلاَلُـــهُ فِـــي نَقْـــضِ مَـــا أَمْضَـــى بِـــه الأَحْكَامَـــا
بِمُحَمَّـــدٍ خَيْـــرِ البَرِيَّـــةِ محتِـــدًا وَأَجـــلِّ مَـــن صَـــلَّى الصَّـــلاَةَ وَصَـــامَا
يَـــا فَـــوْزَ مَـــا أَضْـــحَى بِـــه مُتَوَسِّـــلاً وَغَـــدَا لَـــهُ فَيْمَـــا يَنُـــوبُ إِمَامَـــا
صَـــلَّى عَلَيْـــهِ اللَّـــه مِـــن هَـــادٍ رَضَـــى مَـــا زَارَهُ رَكْـــبٌ فَنَـــالَ مَرَامَـــا

كما يطلب شفاعته –صلّى اللّه عليه وسلّم- لاستسقاء اللّه سبحانه وتعالى كلّما أجدبت الأرض وانقطع المطر(الدّيوان،ص346):

يَـــا مَـــنْ يُؤَمَّـــلُ لُطْفُـــهُ عِنْـــدَ الشَّـــدَائِدِ وَالكُـــرَبِ
بِمُحَمَّـــدٍ خَيْـــرِ الـــوَرَى مَـــا بَـــيْنَ عُجْـــمٍ أَوْ عَـــرَبْ
أَنْـــزِلْ عَلَيْنَـــا رَبَّنَـــا مَطَـــرًا كَـــأَفْوَاهِ القِـــرَبْ
تَجبُـــرْ بِـــهِ مِـــنْ حَالِنَـــا مَـــا اْختَـــلَّ مَحْـــلًا وَاْضْـــطَرَبْ

وقد درج مادحو النبي صلى الله عليه و سلم على أن تختتم مدائحهم بالصّلاة والسّلام عليه، وقد سلك الشّاعر ذات الدرب، يقول عبد الكريم القيسي (الدّيوان،ص31):

صَـــلَّى عَلَيْـــكَ اللَـــهُ مَـــا بَلَـــغَ المُنَـــى مَـــنْ أَمَّ قَبْـــرَكَ فِـــي القُبُـــورِ وَزَارَا
وَابْتَـــلَّ قَطْـــرُ الزَّهْـــرِ مِـــنْ قَطْـــرِ النَّـــدَى وَسَـــرَى النَّسِـــيمُ يَـــرْقُمُ الأَشْـــجَارَا

فجعل صلاته عليه مسك الختام في العديد من قصائده(الدّيوان،ص288):

بَعَـــثَ النَّبِـــيَّ مُحَمَّـــدًا فَهَـــدَى بِـــه ... وَبِجَاهِـــهِ لِلرُّشْـــدِ أَهْـــلَ الجَـــاهِ

وَبَنَـــى بِـــهِ لِلـــدِّينِ أَعْلَـــى مَعْلَـــمٍ ... أَزْكَانُـــهُ مَـــا إِنْ بِهَـــا مِـــنْ وَاهِ

وَحَمَـــى حِمَـــاهُ مِـــنْ خُطُـــوبٍ جَمَّـــةٍ ... وَنَوَائِـــبٍ قَـــدْ أَعْضَـــلَتْ وَدَوَاهِ

صَـــلَّى عَلَيْـــهِ اللَّـــهُ مَـــا لِجَلَالِـــهِ ... خُـــصَّ السُّـــجُودُ بِأَوْجُـــهٍ وَجِبَـــاهِ

وَشَـــفَى غَلِيـــلَ القَلْـــبِ بِالتَّقْرِيـــبِ مِـــنْ ... مَغْنَـــاهُ لَـــثْمُ تُرَابِـــه بِشِـــفَاه

الخاتمة

وفي ختام رحلتي العجلى في رحاب الشّعر الدّينيّ الغرناطيّ، خلصت إلى مجموعة من النّتائج والملاحظات أوجزها فيما يلي:

- إنّ وقوع الأندلس في رُقعة مُتاخمة للنّصارى، دفع أهلها إلى التّعلّق بأهداب الدّين، التماسا للمَدَد الإلهيّ في مقاومة الزّحف الصّليبيّ، الّذي آنس من أسباب التّفكّك في دولة بني الأحمر ما مكّن له سُلطانا عجّل في زوال صرح حضاريّ عظيم، ظلّ يؤرّقه قرونا ثمانية.
- صوّر الأدب الغرناطيّ اضطرابات العصر، وتردّدت في زواياه أصداء ابتهالات الأندلسيّين وتضرّعاتهم مرفوعة إلى الرّحمة اللّدنيّة ، لتُدرك ما لحق الرّوح من انكسار صرفهم عن كلّ نعيم ازدانت به فردوسهم الدّنيويّة(الأندلس)، وحوّل أنظارهم إلى البديل الأخرويّ، بجاه الشّفيع المصطفى-صلّى اللّه عليه وسلّم-الّذي استحثّ حبّه القرائح، فجادت بالثّناء والإشادة، وهامت في فضاءات المحبّة التّوّاقة إلى مُكاشفة الأنوار العلويّة.
- من أهمّ أسباب سقوط غرناطة: الصّراع الدّاخليّ على السّلطة، واتّباع حُكّام بني الأحمر سياسة المهادنة مع النّصارى.
- أدّى احتفاء الحُكّام بالعلوم وتعزيزهم للآداب والفنون إلى ازدهار الحركة العلميّة والأدبيّة في عهد بني الأحمر.
- التّرجمة الصّادقة للمشاعر الدّينيّة في أشعار المديح النّبويّ، الّذي جاء خالصا من مآرب التّكسّب والتّزلّف الّذي دأَب عليه الشّعراء استمالة لقلوب ممدوحيهم وإحرازا لعطاياهم.
- امتزاج التّصوّف الإسلاميّ بالفلسفة الغنوصية، واعتماد الرّموز القائمة على معطيات تأويليّة في التّعبير عن التّجربة الذّوقيّة.
- استلهام المتصوّفة للموروث الشّعريّ الغزليّ وتحميله دلالات تلويحيّة تنسجم و مُواضعاتهم العِرفانيّة.
- اقترن انطلاق شعر الزّهد بثورة الفقهاء على الحَكَم الرّبضي لتفلُّته في بداية حكمه، تعبيرا عن محاربة الفساد السّياسيّ والاجتماعيّ.
- ميل شعر الزّهد إلى السّهولة والوضوح في ألفاظه وتراكيبه ، في لُغة خطابيّة مُباشرة تهدف إلى التّأثير على العامّة تحقيقا للغاية التّربويّة.
- تشابه معاني الشّعر الدّينيّ لدى شعراء بني الأحمر، لأنّها مُستمدّة من القرآن الكريم والسُّنّة النّبويّة الشّريفة.
- ظهور ملامحّ دينيّة في شعر عبد الكريم القيسي، أملتها ثقافته الفقهيّة، وما خلّفته تجربة الأسر من أثر في توجيه حياته إلى مَنحى زُهديّ.

قائمة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. ابن أبي الدّنيا (أبو بكر عبد اللّه بن محمّد): الزّهد لابن أبي الدّنيا، دار ابن كثير-دمشق،ط1 ،1999م.
2. ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل): نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزّمان، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر-سوريا، 1999م.
3. ابن الجوزي (عبد الرّحمان): تلبيس إبليس، دار القلم- بيروت، 1340هـ.
4. ابن الخطيب (لسان الدّين): نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب، مُراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النّشر المغربيّة- الدّار البيضاء، ج3.
5. ابن الخطيب (لسان الدّين):اللمحة البدرية في الدّولة النّصريّة، تحقيق محبّ الدّين الخطيب، المطبعة السّلفيّة ومكتبتها –القاهرة 1347هـ.
6. ابن الخطيب :الدّيوان، تحقيق محمّد مفتاح، دار الثّقافة- بيروت،1989م.
7. ابن الخطيب(لسان الدّين): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمّد عبد اللّه عنّان، مكتبة الخانجي-القاهرة ،ط2، 1973م.
8. ابن تيميّة (أحمد بن عبد الحليم): مجموع فتاوى، جمع وترتيب عبد الرّحمان بن محمّد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف-المملكة العربيّة السّعوديّة، 2004م.
9. ابن خاتمة (أحمد بن عليّ): ديوان ابن خاتمة الأنصاريّ ،تحقيق محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر المعاصر-لبنان ط1، 1994م.
10. ابن خلدون (عبد الرّحمان): شفاء السّائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمّد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر-صنعاء، ط1، 1997م.
11. ابن دريد (أبو بكر محمّد بن الحسن): جمهرة اللغة ،مكتبة المثنى – بغداد، ط 1 ،1345هـ.
12. ابن زمرك (محمّد بن يوسف الصّريحي): ديوان ابن زمرك الأندلسيّ، تحقيق محمّد توفيق النّيفر، دار الغرب الإسلاميّ-بيروت،ط1، 1997م.
13. ابن سيدة (أبو الحسن عليّ بن إسماعيل): المحكم والمحيط الأعظم ،تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 ،ج4،2000م.
14. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم): لسان العرب ،دار صادر – بيروت،ط1 1990م.

15. أبو شارب (مصطفى فتحي): الشّعراء المروانيّون في الأندلس، دار المفردات للنّشر والتّوزيع-المملكة العربيّة السّعوديّة ،ط1، 1999م.

16. البستاني بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار المكشوف ودار الثّقافة- لبنان،ط6 1968م.

17. البلداوي (حميدة صالح): فلسفة التّصوّف في الشّعر الأندلسيّ من العهد المرابطي حتّى نهاية الحكم العربيّ الدّار العربيّة للموسوعات-لبنان،ط1، 2011م.

18. ابن الجرّاح (وكيع): كتاب الزّهد، تحقيق عبد الرّحمان عبد الجبّار الفريوائي، مكتبة الدّار-المدينة المنوّرة ط1، 1984م.

19. ابن عربي (محي الدّين): ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق، المطبعة الأندلسيّة- بيروت ،1312هـ.

20. بهجت(منجد مصطفى):الأدب الأندلسيّ من الفتح حتّى سقوط غرناطة، مديريّة دار الكتب للطّباعة والنّشر-العراق،1998م.

21. الجوزيّة (ابن القيّم): الفوائد، تحقيق عصام الدّين الصبابطي، دار الحديث –القاهرة، ط2، 1994م.

22. حسّان (عبد الحكيم): التّصوّف في الشّعر العربيّ الإسلاميّ (نشأته وتطوّره حتّى آخر القرن الثّالث الهجريّ)، دار العرب-سوريا، 2010م.

23. الحسيني(قاسم):الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ(موضوعاته وخصائصه)،الدّار العالميّة للكتاب-المغرب،ط1، 1986م.

24. الحموي (ابن حجّة): خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق كوكب دياب، دار صادر- بيروت،ط2،ج1 2002م .

25. الششتري (أبو الحسن): ديوان أبي الحسن الشّشتري، ضبط وتعليق: محمّد العدلوني الإدريسي وسعيد أبو الفيوض، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع-الدّار البيضاء،ط1، 2008م.

26. الشّكعة مصطفى: الأدب الأندلسيّ موضوعاته وفنونه ،دار العلم للملايين-بيروت،1975م.

27. شلبي(سعد إسماعيل): البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشّعر، عصر ملوك الطّوائف ،دار نهضة -مصر 1978م.

28. طويل يوسف: مدخل إلى الأدب الأندلسيّ، دار الفكر اللّبنانيّ-لبنان،1991م.

29. ظهير (إحسان إلهي): التّصوّف المنشأ والمصادر، دار ابن حزم –القاهرة،ط1، 2008م.

30. عبّاس إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ،دار الثقافة –بيروت، 1969م.

31. عتيق(عبد العزيز):الأدب العربيّ في الأندلس، دار النّهضة العربيّة- بيروت،1976م.

32. عفيفي أبو العلا: التّصوّف الثّورة الرّوحيّة في الإسلام ،دار الشّعب. بيروت،1933م.

33. كريستيفا جوليا:علم النّصّ ، ترجمة فريد زاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال-المغرب، ط2 1997م.

34. عنّان(محمّد عبد اللّه):دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي-القاهرة،ط2، 1990م.

35. الغزالي (أبو حامد محمّد بن محمّد بن أحمد): إحياء علوم الدّين، دار ابن حزم-لبنان،ط1، 2005م.

36. الغنيمي (أبو الوفاء) :مدخل إلى التّصوّف الإسلاميّ، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع-القاهرة ،1988م.

37. فرحات (يوسف شكري):غرناطة في ظلّ بني الأحمر (دراسة حضاريّة)،دار الجيل-بيروت،ط1993،1م

38. القشيري (أبو القاسم): الرّسالة القشيريّة، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشّريف، دار الشّعب- القاهرة،1337هـ/1979م.

39. القيسي (عبد الكريم): ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسيّ، تحقيق جمعة شيخة ومحمّد الهادي الطّرابلسي، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات (بيت الحكمة)- تونس، 1988م.

40. كعوان محمّد: التّأويل وخطاب الرّمز :قراءة في الخطاب الشّعريّ الصّوفيّ المعاصر، دار بهاء الدّين -الجزائر.

41. الكلاباذي (أبو بكر بن محمّد): التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط1 1352هـ.

42. مبارك زكي: التّصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق، المكتبة العصريّة- لبنان، ط1، 2006م.

43. مبارك زكي:المدائح النّبويّة في الأدب العربيّ ،منشورات المكتبة العصريّة –بيروت، ط1 ،1935 م.

44. المراكشي (عبد الواحد):المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع –القاهرة، 1998م.

45. المراكشي (محمّد بن محمّد بن عبد الملك): الذّيل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، تحقيق إحسان عبّاس محمّد بن شريفة، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلاميّ-تونس، ط1،ج5، 2012م.

46. المقّري (أحمد بن محمّد):نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر-بيروت،1968م.

47. المقّري (شهاب الدّين أحمد بن محمّد): أزهار الرّياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، المعهد الخليفي للأبحاث المغربيّة-المغرب.

48. مكّي (محمود علي): أدبيّات المدائح النّبويّة، الشركة المصريّة العالميّة للنّشر – لونجمان، ط1، 1991م.

49. الموسوعة الفلسفيّة، معن زيادة وآخرون، مراجعة وتصحيح:عصماء نعمة ،مكتبة مؤمن قريش-بيروت،مج1،ط1، 1986م.

50. مؤنس حسين: فجر الأندلس، دار الرّشاد-القاهرة،ط1، 1959م.

51. النّبهاني (يوسف بن إسماعيل): المجموعة النّبهانيّة في المدائح النّبويّة، دار الكتب العلميّة- بيروت.

52. نصر (عاطف جودة): الرّمز الشّعريّ عند الصّوفيّة : دار الأندلس-بيروت، ط1، 1978م.

53. النّووي (محي الدّين يحي بن شرف): رياض الصّالحين، دار ابن الجوزي-المملكة العربيّة السّعوديّة،ط1 1421 هـ.

54. الهرامة (عبد الحميد عبد اللّه): القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري (الظّواهر والقضايا والأبنية) دار الكاتب- طرابلس، ط 2 ،1999م.

55. ضيف شوقي: تاريخ الأدب العربيّ (عصر الدّول والإمارات –الأندلس-)،دار المعارف-القاهرة،1989م.

ملحق

عبد الكريم القيسي:

هو "عبد الكريم القيسي بن محمّد بن عبد الكريم القيسي"[1]، من شعراء الأندلس الغاربة، في القرن الأخير من حياة العرب والمسلمين في تلك الدّيار.

وجاء في تقديم محقّقي ديوانه:د.جمعة شيخة ود.محمّد الهادي الطرابلسي:

ولادته:

إنّ النّاظر في القطعة الّتي قالها الشّاعر بمناسبة سقوط حصن اللّقون سنة 836هـ/1433م،يشعر أنّ القيسي قد أحكم بعد صنعة النّظم، ويرجّح أنّ الشّاعر قالها وقد اكتمل وعيه بخطورة الموقف العسكريّ بعد سقوط هذا الحصن في يد النّصارى .ولهذا يمكن لنا أن نفترض أنّ الشّاعر كان سنة 836هـ/1433م في عنفوان شبابه إن لم يكن قد تجاوز هذه المرحلة بقليل. فيغلب على الظّنّ أنّه ولد في العقد الأوّل من القرن 9هـ.

تكوّنه:

نجد في ديوان القيسي إشارات عابرة إلى أيام الدراسة ضمّنها القصائد التي بعث بها إلى أستاذه البياني وبعض أترابه ورفقائه في الأخذ والتحصيل.

ويعتبر الشاعر أنّ أستاذه "أبا عبد الله محمد البياني" نموذج الشيخ المربّي (ق. 4-5-6 ...) فقد أخذ عنه جملة ما كان يتلقّاه التلاميذ عن شيوخهم في ذلك الوقت من علوم دينية بالدرجة الأولى وعلوم لغوية.

أما رفقاء الدراسة فقد ذكر منهم " أبا عبد الله بن الأزرق الوادي آشي " و " أبا يحي بن عاصم " و "أبا عبد الله محمد بن مالك الأليري" و " أبا عبد الله بن رجاء".

أسرته:

ذكر "القيسي" في ديوانه عددا من أفراد أسرته على رأسهم والده، وقد كان يدعوه بالمولى إجلالا واحتراما وقد راسله مرّتين والشاعر بعيد عن بسطة مسقط رأسه: المرة الأولى وهو يعمل إماما بمدينة برجة، والثانية وهو أسير في آبرة ((ق. 39 و47) وفي محنة الأسر هذه يذكر زوجة له (ق 2).

[1] الدّاية (محمّد رضوان):المُختار من الشّعر الأندلسيّ(وفصول في شعر المغرب وصقلّيّة وفي الموشّحات والأزجال /مدخل إلى تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس والمغرب وصقلّيّة)،دار الفكر المعاصر-لبنان،ط3، 1992 م،ص222.

وقد ذكر "القيسي" أيضا ثلاثة أبناء له: ابنين توأمين هما "الحسن والحسين" وقد توفيا معا في وقت واحد وخصّهما بمرثية من شعره (ق 206)، وابنا ثالثا اسمه أحمد (ق 237)، كما ذكر ابن عم له اسمه "إبراهيم" (ق 175).

معاصروه:

عرّف القيسي في قصائده المدحية والرثائية والإخوانية والعتابية والتعريضية- الهجائية، بصفة غير مباشرة بمجموعة من أعلام عصره سواء من بسطة مسقط رأسه أو من غيرها، والمعلومات التي نجدها عنهم في هذا الديوان تكمّل ما جاء في مصادر أخرى. وهم يختلفون في الرتبة والمركز: فمنهم السلطان، الوزير، شيخ الغزاة، القاضي الفقيه والشاعر.

الوظائف التي تقلّدها

إن الثقافة التي تلقّاها "القيسي" في مدينة بسطة تخوّل له أن يحظى ببعض المناصب الدينية كالإمامة والخطابة والتوثيق والفتيا وعقد الشروط، وفعلا ومنذ شبابه وفي حياة والده تولى إمامة المسجد في مدينة "برجة" مقابل اجر سنوي، وتولى خطة التوثيق، ولما عزل منها طلب أن يولّى خطبة الجامع، وكان "للقيسي" حانوت هو إلى النادي اقرب.

كان مقر العمل وملتقى أصدقاء الشاعر يتجادلون فيه أطراف الحديث ويتطارحون فيه شتّى المسائل الدينية والعلمية، ويبدوا أن الشاعر تولّى خطة مدنيّة في دولة بني الأحمر. فقد عيّن واليا على منطقة لم يذكر اسمها ثم عزل عنها.

المحن التي تعرّض لها:

تَعرّض القيسي في حياته لثلاث محن كبرى على الأقل:

1- الأسر:

أسر النصارى الشاعر وحملوه إلى مدينة آبرة، ولا نجد في الديوان ما يعيننا على ضبط الظروف التي اسر فيها، أما أسباب الأسر في عصره فكثير، ذلك أن العلاقات بين قشتالة ودولة بني الأحمر في ق 9 هـ/15م لئن مرّت بفترات سلم وهدنة فقد كانت في أغلب الأحيان علاقات حرب متواصلة، كما أن الحدود بين الجانبين لم

تكن مستقرّة ولا آمنة، فلا نستغرب أن يكون القيسي قد وقع في كمين في الطريق وهو يتنقل بين مدن المملكة أو سقط أسيرا في إحدى هجمات الجيوش النصرانية على أرض الإسلام.

وفي الديوان نجد أن الشاعر حمل بعد أسره إلى مدينة آبرة، حيث عاش مدة لم يذكر لنا حدّها ولكن نرجّح أنها كانت طويلة نسبيا نظرا إلى أنّ قسما كبيرا من شعره في الديوان كان من وحي الأسر.

وكلمة آبرة واضحة في الأصل وقد تكرّر ذكرها فيه، ومع ذلك فان النطق الصحيح باسم هذه المدينة هو يابرة مما جعل أول من أشار إلى الديوان يرجّح أن المدينة التي حمل إليها الشاعر هي أبّذة نظرا إلى قربها من حدود دولة بني الأحمر وبعد يابرة عنها.

ويقدّم لنا ديوان "القيسي" صورة حقيقية عن ظروف الأسير المسلم في القرن 9هـ/15م عند النصارى، وهي ظروف تجعل الأسير يعيش عذابا ماديا ونفسيا متواصلا، ولم تمنع هذه الظروف نفس الشاعر مع ذلك من التعلّق بالجمال فكان يتغزّل من حين إلى آخر بفتاة نصرانية وهو في أسره (ق 4-19).

2- إحراق حانوته: (ق 299)

أدت الحياة الاقتصادية المتردية في مملكة غرناطة بسبب الحرب من الخارج والفتن من الداخل إلى شبه انخرام في مؤسسات الدولة حتى إنها لم تعد قادرة على استيعاب عدد كبير من الموظفين في الخطط الدينية المعهودة، وهذا يؤدي حتما إلى تنافس المؤهّلين لها عليها، وفي التنافس لا بدّ أن يقع هضم جانب هذا الطرف أو ذاك، ويبدو أن "القيسي" ناله من هذا التنافس ضيم جعله متبرّما ضجرا تارة، حائرا قلقا أحيانا وخاصة عندما تتفاقم ضغوط الحياة المادية عليه، فيصبح غير قادر على تلبية حاجات عائلته (ق 12-213).

وانعكست هذه الحالة في شعره فلام وعاتب وشكا وتذمّر، ونقد وعرّض حتى وصفه بعضهم بالشيطان لجرأته وتطاوله (ق 144)، ولا شكّ أن توتر أعصاب الشاعر بلغ أقصاه عندما قام بعض منافسيه وأعدائه بإحراق حانوته مقرّ عمله ومورد رزقه، فامتلأت نفس الشاعر غضبا وقلبا حقدا على بلده وأهلها فتحوّل لومه قدحا وعتابه ثلبا وتعريضه تشنيعا (ق 49-165-188-189-190-312-313...).

3- العزل:

أشار الشاعر إلى عزله من بعض الخطط مرّتين: الأولى عزل فيها من خطة التوثيق (ق 13) والثانية عزل فيها من ولاية منطقة دولة بني الأحمر لم يسمّيها (ق . 317-318-319)، ورغم انه حاول أن يخفي حسرته وحرزنه لهذا العزل فإنه لم يقدر على كتم ما خلّفه بنفسه من مرارة في مواطن من شعره في المناسبتين وخاصة في المناسبة الثانية.

وفاته:

لا يمكن لنا أن نعيّن وفاة الشاعر إلا على وجه التقريب، فقد أشار في ديوانه إلى الشيب الذي بدأ يغزو عذاره (ق.309) وذكر مرّات أنه بلغ الأربعين (ق. 263-266-267) وذكر مرّة انه بلغ الخمسين أو تجاوزها (ق. 309) كما ذكر أمراضا تعرّض لها بسبب تقدم السّن (ق. 236-254) وهذه الإشارات العابرة تفيد بلا شك أن الشاعر امتدّت به الحياة إلى النصف الثاني من القرن 9هـ/15م، وفي الديوان قطعتان أخريان تؤكدان ذلك، قطعة (ق. 289) تشير إلى فتنة بين السلطان "أبي الحسن" وابنه "أبي عبد الله".

وقطعة (ق.235) هنّأ فيها الشاعر القاضي الجعدالّة (ت 897هـ/1492م) برجوعه إلى القضاء سنة 890هـ/1484م بعد عزله، فكلتاهما تدلّ على أن الشاعر عاش إلى أواخر ق 9هـ/15 م، وليس مستبعدا أن يكون شاهد عيان على سقوط آخر معقل للعرب بالأندلس في غرناطة عاصمة دولة بني الأحمر.

ديوانه:

يعتبر هذا الدّيوان أخر ديوان أندلسيّ،وقد سلم من التّلف والضّياع ووَصَلَنا كاملا،وهو محفوظ في نسخة فريدة ضمن مجموع مسجّل في الخزانة العامّة بالرّباط،تحت عدد198/ق

ولهذا الأثر الشّعريّ قيمة أدبيّة تهمّ مؤرّخ الأدب وناقد الشّعر ودارس الأسلوب، من حيث أنّها تُدقّق وضع الشّعر في القرن التّاسع الهجريّ بالأندلس.وله قيمة وثائقيّة تهمّ حياة الأندلس بمُختلف مظاهرها السّياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة، بل وتهمّ مظاهر كثيرة من حياة الأندلس اليوميّة.

فهرس المحتويات

شكر	
مقدمة	أ-ج
مدخل: البيئة السّياسيّة والثّقافيّة في عصر بني الأحمر	1
الفصل الأول: الشعر الديني، بواعثه، وتجلياته في عهد بني الأحمر	
المبحث الأول: النّزعة الدّينيّة في عصر بني الأحمر	6
المبحث الثاني: أغراض الشّعر الدّينيّ	10
المطلب الأول: شعر الزهد	14
المطلب الثاني: شعر التّصوّف	19
المطلب الثالث: شعر المديح النّبويّ	30
الفصل الثاني: الأثر الدّينيّ في شعر عبد الكريم القيسي	
المبحث الأول: الّتناصّ في زهديّات عبد الكريم القيسي	46
المبحث الثاني: المديح النبويّ عند عبد الكريم القيسي	56
خاتمة	د
قائمة المصادر والمراجع	64
ملحق	69
فهرس الموضوعات	